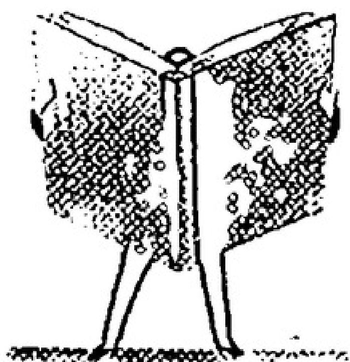

روايات الجيب
٢٠ مليما
كارمن


روایات عجیب
کارمن





أحسن ما قرأت

الورقة الزرقاء

جاء الشاب الامريكي الى باريس في مهمة خاصة بالمصنع الذي يعمل فيه . . . وقد زار فرنسا قبل ذلك . وليس له علم باللغة الفرنسية.

وبلغ باريس بعد ظهر أحد الأيام . فترك حقائبه في فندق وقصد الى أحد المقاهي . .

ورأى على مائدة قريبة من مائدته فتاة فرنسية حسناء . . لاحظ أنها تنظر اليه بإمعان . . وتبتسم له كلما التقت عيناه بعينيها . ولكنه لم يحاول أن يقابل ابتساماتها بمثلها لعدة أسباب . . أهمها : أنه يجهل اللغة الفرنسية . . وان مدة اقامته في باريس محدودة .

وبعد بضع دقائق . . أخرجت الفتاة من

(البقية على صفحة ٥١)

كارمن

مأســاة غانيــة

للكاتب الفرنسي ذائع الصيت بروسبير ميريميه

تعريب الاســتاذ محمد بدر الدين خليل



الفصل الأول

كثيرا ما دار بخلدي ان العلماء الجغرافيين تخبطوا في الجهل حين حاولوا أن يحددوا مكان معركة « موندا » على مقربة من مدينة « موندا » الحديثة ، الواقعة على بضعة فراسخ من شمال « ماربيلا ». لذلك لم ألبث أن عقدت العزم على التنقيب عن موقع « مونتبلا » حيث لعب يوليوس قيصر دوره الأخير ضد أبطال الجمهورية ، مستعينا في بحثي بمؤلف لمجهول ، وببعض معلومات خرجت بها من المكتبة الفنية التي يملكها « دوق اوسونا » ..

وإذ وجدت نفسي ـ خلال هــذا البحث ـ في « الأندلس » في أوائل خريف عام ١٨٣٠ ، رأيت أن أقوم بدراسة طويلة أستوثق بها من الشكوك التي تراودني بصدد بعض الحقائق الجغرافية مما سأفصله في كتيب أنشره بعد الفراغ من بحوثي ، مبينا تلك الحقائق التي أرجو أن اخلص بها علماء اوربا من الريب التي شغلتهم طويلا . .

على انني ـ ريثما يتم وضع هذا الكتيب ـ أود أن أقص عليكم اقصوصة قصيرة ، لن احاول أن أستثيركم فيها بموضوع موقع « موندا » وإن كنت أراه موضوعا طريفا مشوقا ..

فعندما بلغت « قرطبة » استأجرت دليلا وجوادين ، وحملت معي حقيبتي الوحيدة وعددا من الأقمصة ، ونسخة من تاريخ قيصر ، وخرجت أجوب ضواحي المنطقة ، ووجدتني ذات يوم أضرب في البطاح المرتفعة في سهل « كاشينا » ، وقد برح بي التعب ، واشتد بي الظمأ ، وأرهقتني شمس الظهيرة اللاهبة ، حتى بلغ بي الحنق مبلغه ، وفيما أنا ألعن قيصر وأبناء بومبي ، أبصرت عن كثب من الطريق التي كنت أقطعها ، بقعة صغيرة خضراء ، انبثت حولها أعواد القاب والحشائش الكثة فدلني وجودها على انني بمقربة من نبع ماء . . .

وفعلا ، لم أكد أسعى اليها حتى تبينت أن هذه البقعة الخضراء كانت بركة من الماء ، يصب فيها

أصدقائي في مونتيلاء، فأمرت الدليل أن يحضرها ، ودعوت الشاب أن يشاطرنا إياها

ولولم يكن قد دخن طويلا .. لوقر في نفسي انه لم يتناول طعاما لثمان وأربعين ساعة على الأقل فقد أقبل على الطعام في نهم جعلني أشعر بأن العناية الالهية أرسلتنا لانقاذ المسكين من الجوع .

أما دليلي فلم يصب من الطعام غير قسط ضئيل .. ومن الشراب غير نصيب أقل . . ولم ينبس ببنت شفة .. رغم أنه في أول الرحلة أبدى مقدرة فائقة على الثرثرة .

وكأنما ساءه حضر ضيفنا .. وتبدى لي بينهما شعور متبادل من التوجس وعدم الثقة . لم أستطع أن أكشف له عن سبب مباشر . .

فلما فرغنا من تناول الطعام .. ودخنت وضيفي سيجارين آخرين .. أمرت دليلي أن يسرج جوادينا تأهبا للرحيل .. واذهممت أن أودع الصديق الحديث ، سألني عن حيث أنتوي قضاء ليلتي

وقبل أن أفطن الى اشارة ندت من دليلي يحذرني من الافضاء باسم المكان .. كنت قد ذكرت للرجل أنني ميمم شطر « فينتاديلكويرفو » فقال :

— ياله من مأوى حقير لايليق بشخص مثلك ..أنا أيضا أقصد اليه . واذا سمحت شاطرتك الرحلة الى هناك

فقلت وأنا أمتطي فرسي :

— على الرحب والسعة .

وحذرني دليلي مرة أخرى باشارة تبدت في نظراته . إلا أنني هززت كتفي لأفهمه باطمئناني . .

وما لبثنا أن انطلقنا في رحلتنا . .

وقلقت اذ فكرت في الاشارات الغامضة التي صدرت عن دليلي ، وفي عدم ارتياحه للضيف. ثم في الحديث القصير الذي أدلى به هذا الغريب .. ولا سيما عن تلك الرحلة التي قطع فيها ثلاثين فرسخا على ظهر جواده . والتعليل المريب الذي حاول أن يملاها به.

وخرجت من ذلك كله بفكرة عن رفيقنا الجديد . فلم أشك في أنه مهرب ..أو قاطع طريق .

ومع ذلك فما الذي يعنيني من شأنه وقد كنت اعرف ان الخلق الاسباني لايدع مجالا للشك او التحرز من رجل دخن من سجايري ، وشاطرني طعامي .

بل لقد رأيت في صحبته لنا وقاء من أي خطر قد يهددنا في رحلتنا ، فضلا عما داخلني من غبطة اذ اتاحت لي الصدف فرصة اتعرف فيها الى حقيقة احد قطاع الطريق ، فان المرء لايلتقي بهم كل يوم ، كما ان ثمة لذة في ان يكون الانسان على مقربة من مخلوق خطر ، لاسيما اذا ظهر ان هذا المخلوق رضي الخلق طيب المعشر

وطمعت في ان اكسب ثقة ذلك المجهول باي الوسائل حتى اظهر دليلي على استخفافي باشاراته المنذرة ، فحولت مجرى الحديث الى موضوع قطاع الطرق .

وفي وسعك ان تتصور اي احترام صغت فيه حديثي ، اذا علمت انه كان في الاندلس اذ ذاك قاطع طريق يدعى جوزيه ماريا ، شاعت مغامراته على كل لسان ، مما أوحى الى ان الزم جادة

الحذر ، خشية ان يكون زميلي هو جوزيه ماريا بعينه .

فرحت اقص عليه كل ما أعرفه الى عن ذلك البطل مما يشيد بشجاعته وكرمه مطنبا في امتداحه فلم يزد زميلي الغريب على ان قال في فتور :

— ليس جوزيه ماريا سوى شقي من الاشقياء .

وساءلت نفسي وانا اتبين، كلما تأملت الرجل ،شدة شبهه بالصور التي رأيتها لجوزيه ماريا ، مثبتة الى أبواب مدن الاندلس ، تحذر الجمهور منه وتدعو من يقع عليه الى ارشاد البوليس عنه . .

ساءلت نفسي وانا اتبين ذلك ، اتراه ينصف نفسه بهذا القول ، ام هو يتواضع ساخرا متهكما ؟ .

واستوثقت انه جوزيه ماريا نفسه . . بشعره الاشقر ، وعينيه الزرقاوين ، وفمه الواسع ، واسنانه البيضاء الجميلة ، ويديه الصغيرتين ، وملابسه الحريرية يعلوها صديرى من المخمل ذو ازرار فضية . . هو نفسه ، لاشك في ذلك . . ولكنني اعتزمت ان احترم رغبته في التنكر .

ووصلنا الى الخان ، فذا هو كما وصفه لي . . حجرة واسعة ، تستعمل للطهى وتناول الطعام والنوم في آن واحد . .

ورأيت نارا توقد على منصة حجرية في منتصف الحجرة ، فيتصاعد دخانها منسابا خلال فتحة في السقف ، أو منتشرا كالضباب في جو المكان . . وعلى الارض بحذاء الجدار فرشت خمس او ست حشيات خشنة اعدت لنوم النزلاء .

وعلى بعد عشرين خطوة من الخان أقيمت حظيرة لايواء الخيل .

ولم يكن في المكان حين وصلنا غير عجوز وبنية صغيرة كانتاهما كالحة السواد ، خلقة الثياب فبهتت لهذه السلالة البائسة ، التي انحدرت من نسل أهل «موندا» القديمة ، وهتفت في نفسي : «ويك ياقيصر !. كم تكون دهشتك اذا عدت الى الدنيا ثانية .»

واذ رأت العجوز رفيقي صاحت في دهشة :

— آه ! . أهذا انت يادون جوزيه ؟

فعبس دون جوزيه ورفع يده آمرا ، فبترت المرأة صيحتها في الحال . . والتفت الى دليلي واشرت اليه خلسة ان ليست به حاجة الى ان يذكر لي شيئا عن الرجل الذى سأقضي معه ليلتي تحت سقف واحد . .

وكان العشاء خيرا مما توقعت ، وقد مد الينا نضد يبلغ ارتفاعه حوالى القدم ، واعد من ديك مشوى وأرز ، ونبيذ معتق من كروم مانتيللا .

فلما انتهينا من تناول العشاء سألت الفتاة الصغيرة ما اذا كانت تجيد العزف على «المندولين» اذ أبصرت « مندولينا » معلقا على الحائط فليس يخلو منه في اسبانيا بيت فاجابتني :

— لا .. ولكن السنيور جوزيه يجيد العزف الى درجة رائعة !

فقلت له :

— هل تتكرم بان تغنيني قليلا ، فانني جد مشغوف بموسيقاكم الوطنية .

فأجاب ضاحكا :

— ما أراني أرفض طلبا لرجل مؤدب مثلك ، وهبني تلك السيجارات الفخمة الجيدة .

وتناول الآلة فراح يعزف عليها وهو يغني . .

ومع ان صوته كان أجش الا انه بدا عذبا مليحا . . ولم أفقه للاغنية معنى ، ولكن اللحن انساب حزينا مشجيا . فقلت له :

— لعلني غير مخطيء اذا قلت ان هذه الاغنية ليست اسبانية . . فهي تشبه ماسمعت في المقاطعات الشمالية . . كما ان كلماتها تلوح لي مشتقة من « الباسك » لغة تلك المقاطعات .

فقال في وجوم :

— أجل .

والقى « المندولين » جانبا .. وعقد ذراعيه على صدره .. واحدق حزن وأسى يتأمل بقايا النيران وهي تخمد . وانعكس على وجهه ضوء المصباح القابع على المائدة فبانت لي قسماته نبيلة ، تكسوها مسحة من القسوة والجرأة . . ذكرتني بذلك الشيطان الذى ابتدعه خيال الشاعر الانجليزي « ميلتون » .

وخيل الى انه كان اذ ذاك يحلم مثله بالفردوس الذى خلفه وبالمنفى الذى الق فيه ليكفر عن خطيئته . .

وحاولت ان اثير الحديث ، ولكنه لم يجب . بل استغرق في افكاره الحزينة . . وكانت العجوز في تلك الاثناء قد اوت الى ركن من الحجرة يستتر بملاءة قديمة نشرت على حبل . وتبعتها الصبية فما لبث دليلي ان نهض وسألني ان اصحبه الى الحظيرة ، بيد ان دون جوزيه انتفض وكأنما استيقظ بغتة من نعاس طويل . وسأله في جفوة عن مقصده . ثم قال :

— ولماذا تذهب إلى الحظيرة ؟ .. لقد تلقت الخيل علفها ، فنم هنا ، وسيسمح السيد بذلك .

— أخشى أن يكون جواد السيد معتلا ، وأريده على أن يراه عسى أن يجد له علاجا

وكان جليا أن أنطونيو انما ود أن يتحدث الى في نجوة من الرجل ، بيد انى حرصت على أن لا أثير شكوك دون جوزيه ، اذ لاح لى انه يحسن بي — ونحن في تلك الظروف — ان أبدى له أقصى ثقة .

فقلت لانطونيو انى لاأخشى على الجواد شرا ، وانني أفضل ان استسلم للنوم .. وتبع دون جوزيه الدليل الى الحظيرة ، وما لبث أن عاد وحده ، قائلا ان جوادى بخير ، ولكن الدليل يغالي في العناية به ، حتى انه راح يدلكه بسترته كي يستدر العرق من جسمه ، ولذا فقد فضل أن يقضي الليل بجانبه ، منهمكا في هذه المهمة .. وكنت اذ ذاك قد استلقيت على تلك الحشيات .. وتدثرت بعباءتي حتى لايمس جسدى الحشية ، فاستأذنني الدون جوزيه في أن يرقد الى جوارى ثم استلقى على مقربة من الباب ، بعد أن حشا غدارته وحرص على أن يضعها تحت الوسائد التي

أسند اليها رأسه . وماهي إلا دقائق حتى كنا قد استسلمنا للنعاس

وكنت أظن أن التعب قد برح بى حتى ظننتنى سأستغرق فى النوم رغم خشونة المضجع ، بيد انى لم البث أن استيقظت بعد ساعة ، اذ احسست بحشرة تلدغنى لدغة قاسية فضلت معها أن أغادر المكان فأقضى ليلتى فى العراء ، ومن ثم سعيت الى الباب على اطراف قدمى ، متخطيا دون جوزيه الذى كان نائما نوم الآمن المطمئن ، وغادرت الدار دون أن اقلقه

ووجدت الى جوار الباب مقعدا خشبيا طويلا ، فتمددت عليه متخذا الوضع الذى يريحنى ، منتويا أن أقضى الليل فى مكانى

وفى اللحظة التى هممت أن أطبق فيها جفنى خيل الى أن ثمة شبح رجل يمر أمامى جارا خلفه جوادا ، متسللا به فى هدوء وبغير جلبة ،فاستويت فى مكانى جالسا ، اذ تبينت أن الرجل لم يك سوى انطوتيو

ودهشت إذ رأيته خارج الحظيرة فى مثل تلك الساعة المتأخرة ثم تغرت فلحقت به ، فتوقف عن السير اذ رآنى ، وهمس :

— أين هو ؟

— حسب انه نائم فى النزل ، غير عابىء بالحشرات .. لماذا قدت الجواد خارج الحظيرة ؟

ولاحظت انه لف سنابك الجواد فى خرق اقتطعها من ملاءة قديمة .. حتى لايحدث صوتا أثناء تسلله .. وسمعته يقول :

— خفض من صوتك بربك .. انك لاتعرف هذا الرجل .. انه جوزيه نافارو أخطر قاطع طريق فى الأندلس .

لقد حاولت طيلة يوى أن أحذرك بالاشارة .. ولكنك لم تدرك ماعنيت

— وماذا يهمنى ان كان قاطع طريق ؟.. انه لم يسلبنا شيئا ،واراهن انه لايضمر ذلك

— ان هناك مكافأة قدرها مائتا دوقات رصدت لمن يقبض عليه .. وانى لأعرف مركزا من مراكز البوليس على فرسخ ونصف من هنا .. فلن يطلع النهار حتى أكون قد عدت بفرقة من الرجال الأشداء .. وكم كنت أتمنى لو صحبت معى جواده أيضا .. ولكنى أعرف أنه لايسمح لغير صاحبه بالاقتراب منه .

— أى شر تسعى اليه ؟ .. وأى سوء رماك به المسكين حتى تشى به ؟ .. ومع ذلك أواثق أنت من أنه الشقى الذى تظنه ؟

— كل الثقة .. لقد تبعنى الى الحظيرة منذ قليل ليقول لى : « يلوح لى انك تعرفنى .. فاياك أن تنبىء هذا السيد بحقيقتى والا حطمت رأسك » .. فابق معه ياسنيور .. وارقد الى جواره .. ولا تخش شيئا . فلن يداخله ريب فى أمرك

وكنا فى هذه الأثناء قد ابتعدنا عن النزل مسافة لايتيسر منها أن يصل وقع حوافر الجواد إلى آذان من فى الدار

فاعنى انطونيو وفى مثل لمح البصر كان قد انتزع الخرق من حول حوافر الفرس وتأهب لامتطائه ..

وحاولت أن أثنيه متوسلا اليه آنا .. متوعدا آنا آخر .ولكننى لم أفلح بل قال لى :

— انى فقير مسكين ياسنيور وليست ماتنا دوقات بالمبلغ الذى يسهل التنازل عنه لاسيما وانى بعملى هذا سأخلص البلاد من شقى مثله .. ولكننى أرجو ان تحترس لنفسك . فان نافارو إذا استيقظ فيعمد الى غدارته فخذ لنفسك الحذر !.. اما أنا فليس بوسعى أن أنكص على عقبى فاختر لنفسك مايحلو ..

وقفز الوغد فوق جواده . ثم لكزه بمهمازيه فانطلق به كالريح .. وسرعان ماغاب عن ناظرى بين طيات الظلام ..

وسخطت على دليلى .. واحسست قلقا شديدا .. وعقدت العزم على العودة الى الخان .. وقد استقررت على أمر ، فاذا دون جوزيه يغط فى نوم عميق أثر تعب بالغ وسهر طويل فى مغامراته .. واضطررت ان اهزه بعنف حتى استيقظ . وان انس فلن أنسى النظرة الوحشية التى تجلت فى عينيه .. والحركة السريعة التى مد بها يده يمسك غدارته التى كنت بدافع الحذر قد أبعدتها قليلا عن الوسادة . .

وقلت له :

— أتسمح لى أن أوجه اليك سؤالا سخيفا ياسيدى الفارس ؟.. هل يرضيك أن ترى نفرا من الجنود ينهبون الارض ساعين الى هنا ؟.

فقفز مستويا على قدميه وصاح فى صوت رهيب : من أنبأك بذلك ؟

— وهل يعنيك سوى النصح مادام صادقا ؟

— لابد أن دليلك قد وشى بى ولكنه سيدفع الثمن غاليا .. اين هو ؟

— لاأدرى .. أظنه فى الحظيرة .. ولكن شخصا قال لى ..

— من .. من ؟ .. ماأظنها المرأة العجوز ؟ ..

— بل شخص لا أعرفه .. ولكن لاينبغى أن نطيل الحديث .. فهل لديك من الأسباب ما يحملك على اجتناب الجنود ؟ .. اذا كانت لديك هذه الأسباب ، فلا تضع الوقت وارحل واصفح عنى إذ أزعجتك ..

— آه .. انه دليلك ! .. دليلك .. لقد شككت فى أمره منذ أول وهلة . . ولكنى سأقتص منه .. وداعا ياسيدى ، وليجزك الله خيرا عما قدمت لى .. انى لم أبلغ من السوء المبلغ الذى تعتقده .. أجل . ما زال فى نفسى ما يدعو الرجل النبيل الى الاشفاق على .. وداعا ياسيدى ولست آسف إلا لعجزى عن ان اجزيك عن صنيعك

— لست أرجو جزاء يادون جوزيه اكثر من أن تعدنى بأن لاترتاب فى مخلوق ، أو تفكر فى الانتقام من احد .. تريث .. خذ هذه السيجارات تدخنها فى سفرتك .. وأرجو لك

رحلة سعيدة !

ومددت له يدى فشد عليها فى صمت . ثم تناول منطقته وغدارته . وبعد أن ألقى على العجوز بضع كلمات فى نفة لم أفهمها هرع الى الحظيرة وما هى إلا لحظات حتى سمعت وقع حوافر جواده وهو يركض نحو الخلاء . .

أما أنا فعدت الى مضجعى على المقعد الخشبي الطويل ، ولكننى لم أستطع النوم ، ورحت اسائل نفسى هل اصبت إذ أنقذت هذا اللص .. بل هذا القاتل ، من المصير الذى ينتظره ، لا لشىء إلا لأننى أكلت معه قطعة من اللحم وقسطا من الارز . ووشيت اليه فى ذات الوقت بدليلى الذى كان يسعى لخدمة القانون والعدالة وعرضته بذلك لانتقامه ؟

ولكننى أديت ماتقتضينى إياه قوانين الكرم إزاء من أحسن وفادتى ! وتذكرت أن أبسط قوانين الفطرة تجعلنى مسؤولا عما يأتيه هذا الشقى فى المستقبل من جرائم ..

ولكن ، أوليس فى مثل هذه الحالة الدقيقة مخرج أنفذ خلاله من عبء هذه المسئولية ؟

وهكذا رحت افكر فى عمل على ضوء قوانين الاخلاق ، حتى شعرت بقدوم ثلة من الفرسان يصحبهم أنطونيو .. فخففت الى لقائهم وأزجيت اليهم أن قاطع الطريق قد فر منذ أكثر من ساعتين . .

وقالت العجوز — إذ سألها رئيس الثلة — انها كانت تعرف نافارو إذكان يتردد على دارها . ولكنها لم تجسر على فضح سره لأنها وحيدة عزلاء .. وذكرت انه اعتاد كلما هبط على نزلها أن يرحل عنه فى جوف الليل

أما أنا .. فاضطررت أن أصحبهم بضعة فراسخ ، حيث عرضت جواز سفرى على أحد الضباط ، ووقعت على محضر تضمن ما أدليت به من أقوال . ثم أطلق سراحى لأعاود أبحاثى العلمية.

وكان أنطونيو قد أحس موجدة على ، إذ داخله الريب فى انى سعيت الى حرمانه من الفوز بالمائتى الدوقات .. فافترقنا فى قرطبة ولكن على صفاء بعد أن أجزلت له العطاء بقدر ما سمحت لى طاقتى المالية .

الفصل الثانى

قضيت فى قرطبة عدة أيام ، إذ نمى إلى أن فى مكتبة دير الرهبان الدومينيكان مخطوطا يجوز أن أعثر بين طياته على معلومات هامة عن « موندا » القديمة.

وقد أكرم الرهبان وفادتى .. فكنت فى ديرهم أنكب فى النهار على الدراسة ، لا اكاد اغادره إلا عندما يهبط المساء فأخرج الى جولة فى المدينة

واعتدت أن أقصد الى الضفة اليسرى لنهر الجواد الكبير ، حيث يلجأ كثير ممن لاشواغل لهم عند مغرب الشمس كل يوم ، يمتعون أبصارهم بمنظر ما أظن أن له مثيلا ..

فقبل أن تغرب الشمس خلف الأفق بلحظات قلائل ، كان رهط من النساء ينسبن الى حافة النهر — تحت الضفة التى كانت تقوم على ارتفاع من النهر — لايجسر أى رجل على أن يختلط بهن أو يندس بينهن .

فاذاما دق ناقوس الكنيسة آخر دقاته إيذانا بمقدم الليل ، خلعن ملابسهن وألقين بأنفسهن الى أحضان النهر .

وسرعان ماترتفع فى الجو صيحاتهن وضحكاتهن كرنين جرس فضى . . فيحتشد الرجال عند الضفة المرتفعة يمدون أبصارهم فلا يكادون يبصرون شيئا .. وان كانت أشباح النساء تبدو كأطياف بيضاء تثير خيال المرء .

ولقد قيل لى ان بعض الرجال عمدوا مرة الى ارشاء الحارس الذى يدق ناقوس الكاتدرائية كى يبعث دقاته قبل وقتها المناسب بعشرين دقيقة .

ومع أن النهار كان لا يزال واضح المعالم إلا أن غانيات نهر الجواد الكبير لم يترددن فى أن يخلعن ثيابهن ويقفزن الى الماء .

وكان منظرا لم تتح لى رؤيته لأننى لم أكن حاضرا اذ ذاك . فلما أتاحت لى الظروف أن أرحل الى هناك .. كان الحارس الموكل بدق الجرس تقيا أمينا لايقبل الرشوة .. وكان الغسق معتما لايستطيع المرء خلاله أن يميز شيئا ..

وفيما كنت ذات مساء أتكىء على سياج الضفة وأنا أدخن . شاهدت امرأة تصعد السلم المفضى من النهر وتقترب منى ..

وكانت تثبت فى شعرها باقة من الياسمين ينبعث منها أريج عابق .. وقد اكتست بثياب بسيطة رخيصة سوداء .. ككل غانيات الليل .. على العكس من سيدات المجتمع اللاتى كن لايرتدين السواد إلا فى النهار .. بينما يلبسن فى الليل أحدث ألوان الثياب .

فلما غدت على مقربة منى . . تركت وشاحها ينحسر عن رأسها حتى كتفيها . . فتبينت على ضوء النجوم الواهنة أنها شابة مليحة ذات عينين واسعتين .. فألقيت سيجارى بعيدا . . فأدركت لفورها مقصدى .. وأسرعت تقول أنها جد مغرمة برائحة التبغ وانها كانت أحيانا تدخن بعض اللفافات الرخيصة.

وكنت أحمل لحسن الحظ عددا من اللفافات .. فعرضتها عليها .. فتناولت واحدة وأشعلتها .

وأخذنا نتبادل الحديث ونحن ندخن .. فلم نفطن الى انصراف القوم .. والى أنه لم يبق على الضفة سوانا .. ولم أر مايحول دون أن أدعوها الى شيء من المثلجات فى مشرب .. فقبلت بعد تردد بسيط .. ولكنها سألتنى عن الوقت قبل أن نمضى سويا . . فأخرجت من جيبى ساعتى الدقاقة وضغطت زرها .. فانبعث جرسها الصغير يرسل دقاته منبئا بالوقت . مما أثار فى نفسها دهشا وعجبا فهتفت :

— ماأغرب مالديكم من مخترعات أيها الاجانب ! . . من أية دولة أنت ياسنيور ؟ . أظنك انجليزيا ولا شك ؟.

— بل فرنسي .. وأنت يا آنستي ، أو ياسيدتي .. لعلك من قرطبة ؟

— كلا — لعلك على كل حال أندلسية ؟ .. ان لهجتك توحي لي بذلك .

— اذا كنت تجيد التعرف الى الناس من لهجاتهم . ففي وسعك أن تحدد بالضبط موطني ..

فقلت وأنا أذكر مالقنني اياه صديقي فرانسيسكو سيفيلا من ألوان الحديث الذي يستهوي الاندلسيات ويروقهن :

— أظنك حورية هبطت من احدى ضواحي الفردوس .

— الفردوس ؟ .. مرحى ! . ان القوم هنا يقولون ان الفردوس لم يخلق لمن على شاكلتنا

فقلت في تردد . وأنا لاأجرؤ أن أسألها ما اذا كانت يهودية :

— أتراك مراكشية ؟

— كن صريحا .. انك تعرف ولا شك أنني نورية . أتحب أن أقرأ لك طالعك ؟ . أما سمعت قط عن كارمنيشيتا المنجمة ؟. هذه أنا..

وكنت في ذاك الحين — من خمس عشرة سنة مضت — فاجرا لاأجفل اذ أجد نفسي الى جوار ساحرة .. وعجبت للصدف التي كانت تتعاقب ..

فمنذ أسبوع ، تناولت عشائي مع قاطع طريق . وهاأنذا الآن موشك أن أتناول بعض المثلجات مع احدى خادمات الشيطان ! .

وكان ثمة داع آخر يحفزني الى توطيد صلة التعارف بيني وبينها .. فانني اعترف — في خجل — انني بعد تخرجي في الكلية التي كنت اتلقى فيها دروسي . اضعت بعض الوقت في دراسة العلوم الروحانية . بل وحاولت ثلاث مرات ان استحضر ارواح الظلام .

ومع أنني شفيت منذ أمد طويل من الميل الى مثل هذه الدراسة . الا أنني أشعر بشيء من الفضول نحوها . فغبطت نفسي اذ أتاحت لي الظروف فرصة أتبين فيها مدى مابلغه النور (الغجر) من نجاح في ممارسة السحر .

وبلغنا المشرب .. فجلسنا الى مائدة تضيؤها شمعة أنيمت في كرة زجاجية . واستطعت اذ ذاك أن أفحص رفيقتي .. بينما كان رواد المشرب من علية القوم ينظرون الينا .. وقد أخذتهم الدهشة لوجود شخص مثلي في صحبة امرأة مثلها .

وانتابني الشك في أن تكون الآنسة كارمن نورية خالصة . وخيل الى أن في عروقها مزيجا من دماء مختلفة . فقد كانت أجمل بكثير من أية فتاة رأيتها من بنات النور ..

وللأسبانيين معيار خاص لقياس الجمال . فهم يرون أن المرأة لايكتمل جمالها الا اذا حازت عشر صفات تنطبق كل منها على ثلاثة من أجزاء جسمها .

فمثلا لابد أن تكون بجسمها ثلاثة أجزاء سوداء : عيناها . وأهدابها . وحاجباها

وثلاثة رقيقة ناعمة : يداها .. وشفتاها .. وشعرها .. وهكذا ..ولم تكن فتاتي النورية على هذه الدرجة من الكمال .. فمع أن بشرتها كانت ناعمة صافية ، الا انها كانت سمراء .

ومع ان عينيها كانتا دعجاوين الا أنها كانتا واسعتين .

ومع ان شفتيها كانتا ممتلئتين نوعا ما .. الا انها كانتا جميلتي الشكل .. تنطبقان على اسنان بيضاء جميلة .

وكان شعرها خشنا بعض الشيء الا انه كان فاحما .. يتخلله وميض أزرق كلون جناح الغراب .

ولن اسئمك بالاسهاب في وصف تفاصيل جسمها .. ولذا فانني اكتفي بان اذكر انها كانت تحوز مقابل كل عيب قد يشين كمال خلقتها .. ميزة تمحو آثار هذا العيب .

كانت ذات جمال فطري ساحر وكان لها وجه يبهرك جماله لأول مرة . وتنطبع صورته في خيالك فلا يقدر لك بعد ذلك نسيانه . لاسيما عيناها اللتان كانتا تعكسان نظرات لم أرها من قبل في عيني أي بشر .. نظرات جائعة .

ولا عجب اذا كان الاسبانيون يقولون : « عين النورى صنو لعين الذئب »

فاذا لم يمكن وقتك يتسع لان تقصد حديقة الحيوان فتأمل عيني الذئب .. فلا بأس من ان تنتبه الى عيني قطتك وهي ترقب طيرا تتحفز لاقتناصه ! .

وكان من السخف طبعا ان اسألها ان تقرأ لي الطالع في الشرب .. ولذا فقد سألت الساحرة الحسناء ان تسمح لي ان أرافقها الى بيتها .. فوافقت دون حرج أو تردد .. ولكنها سألتني عن الوقت مرة أخرى .. ورجتني ان اسمعها دقات ساعتي ثانية .

ثم قالت وهي تتفحصها في اهتمام :

— أهي من الذهب الخالص ؟

وكان الليل قد ازداد حلوكة حين سرنا الى بيتها .. والمحال قد اقفلت ابوابها وكادت الطرقات ان تقفر .

وعبرنا الجسر القائم فوق نهر الجواد الكبير حتى اذا بلغنا نهاية الضاحية وقفنا امام بيت متواضع لاتبدو عليه مظاهر الغنى .

وقادنا الى الداخل طفل القت اليه النورية ببضع كلمات بلغة لم أفهمها ـ وان ادركت بعد ذلك انها اللغة الرومانية تخالطها بعض الاصطلاحات التي ابتدعها النور لانفسهم ـ فخلفنا الطفل في الحال في حجرة رحبة بها منضدة صغيرة ومقعدان وصندوق ..

ولا يجب ان اغفل ذكر جرة مليئة بالماء . . وكومة من البرتقال . . وبعض البصل . . في ركن من الحجرة .

وما ان انفردنا حتى اخرجت النورية من الصندوق حزمة من أوراق اللعب ابلاها طول الاستعمال ، وعددا من الادوات التي لاغنى لها عنها في ممارسة فنها الغريب ثم سألتني ان ارسم في يدي صليبا بحافة قطعة من النقود ، وشرعت بعد ذلك في اجراءاتها السحرية . .

ولست ارى بك حاجة الى ان تعرف ماتنبأت به ، ولكنني لن انسى ان اذكر لك أنها كانت تمارس عملها في مهارة الطبيب المدرب .

وما لبث ان قطع علينا خلوتنا مقدم رجل ـ ترهل حتى عينيه بدثار بني اللون ـ دفع الباب في عنف وخطا الى داخل الغرفة مبادرا فتاتي النورية بعبارات جافة قاسية في لغة لم يتسن لى فهمها ، وان ادركت من لهجته انه مغضب ساخط .

ولم تبد النورية اذ رأته اى غضب ، لا ولم يبدر منها مايدل على الدهشة أو ينم عن المفاجأة بل هرعت لاستقباله ، وتحدثت اليه بنفس اللغة ، وفى لهجتها اغراء وسحر

وأدركت من كلمة « بابالو » التى كانت تكررها ، انها تحدث شخصا من غير جنسها فقد كنت أعرف ان النور قد ابتدعوا هذه الكلمة لمثل هذه المناسبة .

واذ ظننت ان المشادة تدور من أجلى ، فقد توقعت ان أجد نفسى فى موقف حرج ، فأمسكت برجل أحد المقعدين ، مترقبا اللحظة التى اضطر فيها الى ان أنازل الرجل فأحطم رأسه .

ومالبث هذا ان نحى المرأة جانبا فى خشونة ، وتقدم مني ، ثم تراجع فجأة وهتف :

— وى ! . أهذا أنت ياسنيور ؟

وتأملته بدورى ، فتبينت انه دون جوزيه .. وأسفت فى تلك اللحظة على انى انقذته من حبل المشنقة ، ولكنني صحت وانا اضحك ماوسعني التظاهر بالضحك :

— إه ! . اذن ، فأنت صديق الطيب ! . لقد قطعت على الآنسة الفرصة التى كانت تكشف لى فيها عن أعجب الامور فى طالعى .

فقال وهو يصرف باسنانه ، ويرميها بنظرة قاسية :

— هكذا حالها دائما ! . لابد ان تكف عن هذا .

ومع ذلك ، فقد ظلت النورية تخاطبه بلغتها ، وهى تزداد انفعالا شيئا فشيئا وقد احمرت عيناها وغدت نظراتها رهيبة ، وتقلصت أساريرها .. وراحت تضرب الارض بقدمها . ولاح لى انهما تستحثه على عمل شيء يتردد فى الاقدام عليه . .

وخيل الى انى ادركت حقيقة هذا العمل الذى تحمله على اتيانه . . حين رأيتها تحرك حافة كفها فيما تحت ذقنها .. ذوقر فى نفسى انها تسأله ان يقطع عنق شخص ما .. غلب ظنى انه ليس سواى أنا . .

ولم يجب دون جوزيه على تحريضها الحماسى بغير كلمتين او ثلاث لفظها فى حدة .

فرمقته النورية فى ازدراء عميق .. ثم جلست القرفصاء فى ركن من الحجرة .. وراحت تنزع القشر عن برتقالة .. وتقبل على التهامها .. بينما تناول دون جوزيه ذراعى .. وفتح الباب ثم قادنى الى الطريق فسار معى حوالى المائتى خطوة والصمت الشامل يسيطر علينا .. ثم وقف وبسط يده قائلا :

— واصل السير فى هذا الاتجاه .. فلا تلبث أن تبلغ الجسر .

وولانى ظهره .. ثم ابتعد عنى فى سرعة .. فعدت إلى حيث كنت انزل والخجل يعروني والاستياء يملك على نفسى .

ولكن اسوأ ما في الأمر انى لم البث أن تبينت حين خلعت ملابسى .. ان ساعتى قد فقدت .

وحالت عدة أمور دون ان أعود الى منزل النورية فى اليوم التالى فاطالبها بالساعة .. أو ان أبلغ البوليس بأضياعها ..

وفرغت من الاطلاع على المخطوط التاريخي الذى كان فى مكتبة الرهبان الدومينيكان .. ثم رحلت الى (سيفالة) . وبعد أن قضيت عدة اشهر أضرب فى ارجاء الأندلس اعتزمت العودة الى مدريد .

واذ كان لابد ان امر فى طريقى بقرطبة .. فقد انتويت ان لاأطيل المكث فيها .. اذ امتلأ قلبي سخيمة وبغضا لتلك المدينة الجميلة .. ولغانيات نهر الجواد الكبير

وما كنت لأقيم فيها يوما لولا انني كنت اود زيارة بعض اصدقاء فيها وقضاء بعض المهام مما كان يضطرنى الى ان ابقى فى عاصمة الامراء المسلمين ثلاثة أيام أو أربعة على الأقل

وما كدت أزور دير الدومينيكان .. حتى استقبلني واحد منهم كان يظهر كثير اهتمام بما اقوم به من ابحاث عن موقع مدينة (موندا) فتلقانى معانقا صائحا :

— سبحان الله الكريم القدير ! .. مرحبا بك أيها الصديق العزيز ! .. لقد ظننا أنك مت ولقد أديت بنفسى بعض الصلوات — التى لا آسف عليها — ترحما على روحك واستغفارا لذنوبك! اذن ، فلم تقتل حين سرقت ؟

فسألته فى شيء من الدهشة :

— ماذا تعنى ؟

— الا تذكر ساعتك الجميلة التى اعتدت أن تسمعنا دقاتها فى المكتبة لتنبهنا الى أن وقت الصلاة قد حان ؟ .. لقد عثر عليها ، وسترد لك ..

فقاطعته قائلا :

— قد اكون وضعتها فى مكان غاب عن ذاكرتى .

— ان الشقى ملقى الآن فى غياهب السجن . وقد غشينا خوف مروع من أن يكون قد قتلك حين سرقك ، فان كل امرىء يعرف انه لايحجم عن ازهاق اى روح فى سبيل درهم واحد .. سأصحبك الى ادارة البوليس فتسترد ساعتك ، حتى تتأكد بنفسك من أن لامحالة فى اسبانيا وجودا ..

— الواقع انى أفضل أن أفقد ساعتى عن أن أدلى بما يرسل بائسا متعوسا الى أعماق السجن .. ثم انه ..

— على رسلك ! .. لاتخف ، فمصيره مضمون ، ولن يشنق غيرمرة .. لا ، بل انى اخطىء اذا قلت « يشنق » فهو شرير آثم .. وأنت تعرف ان المجرم اذا لم يقض عليه عند ما ينفذ فيه الحكم بالشنق فانه ينجو ، ولا يعاد تطبيق الحكم عليه مرة أخرى

ولكن سارقك حرم من هذا الامتياز ، ولا بد من ازهاق روحه بعد غد .. ولن يكون

لسرقته اياك أثر فى تعديل الحكم ، فما هى الاحداث من كثير من الآثام ، فان شره لم يقتصر على السرقة فحسب ، لانه ارتكب عدة حوادث قتل ، كان كل منها اشنع وأبشع من سابقه .

— وما اسمه ؟

— انه يعرف باسم جوزيه نافارو . ولكن له اسما آخر لايعرفه مخلوق هنا .. أؤكد لك أنه رجل جدير بأن تشاهده ، فما يجوز لمن كان مثلك مغرما بمشاهدة عجائب البلاد ، أن يهمل رؤية المنظر الذى يغادر فيه هؤلاء الاشقياء الحياة .. انه فى كنيسة السجن الآن ، وسيسمح لك القس مارتينز بزيارته .

ولم أستطع أن أقاوم الحاح صديقى الراهب ، فذهبت لرؤية السجين ، حاملا معى عددا من السيجارات عساها تكون حجة اعلل بها رغبتى فى مشاهدته فى محنته .

وسمح لى بزيارته ، فوجدته مستغرقا فى وجوم عميق .. واذ قدمت له السيجارات هز رأسه فى فتور شاكرا هديتى وتخير بعضها ، ثم رد الى الباقيات ، معتذرا بانه لن يكون فى حاجة اليها ..

وسألته عما اذا كان فى الوسع تخفيف عقوبته لقاء مبلغ من المال ، أو باستعمال نفوذ أصدقائى فهز كتفيه فى بادىء الأمر مبتسما فى أسى ، ثم فكر فى الأمر ورجانى أن أعمل على اقامة صلاة على روحه .

ثم أضاف فى توجس وتردد :

— وهل .. هل تسمح أيضا باقامة صلاة أخرى لامرأة أساءت اليك ؟

فأجبته :

— بكل تأكيد ، ولكننى لا أعرف فى هذه البلاد مخلوقا أساء الى

فأمسك يدى يضغطها فى حرارة ، وعاد يقول بعد أن لفنا الصمت لحظة :

— أو ترضى أن تؤدى الى صنيعا ؟ قد تمر فى عودتك الى بلادك بمقاطعة نافار .. أو لعلك ستجتاز على الأقل (فيتوريا) التى لاتبعد عنها كثيرا

— أجل ، سأرحل عن طريق فيتوريا بكل تأكيد ، ولا يبعد أن أعرج لزيارة (بامبيلونا) ، بل ويسرنى أن أقوم بهذه الزيارة من أجلك

— سترى فى بامبيلونا أشياء قد تروقك رؤيتها .. فهى مدينة جميلة

وأشار الى قلادة فضية تطوق عنقه . ثم استطرد وهو يغالب عواطفه وشجونه :

— سأسلمك هذه القلادة ، فلفها فى قطعة من الورق ، واحملها أو ابعث بها الى امرأة طيبة سأذكر لك عنوانها .. وأرجو أن تخبرها انى مت . ولكن لا تذكر لها شيئا عن ميتتى وكيف كانت ..

ووعدته بأن أحقق رغباته .. ثم زرته ثانية فى اليوم التالى .. وقضيت معه جانبا من يومى ..

ومن شفتيه سمعت القصة التي تقرؤها فيما يلي ..

الفصل الثالث

قال :

« ولدت في (البيزوندو) بوادي (بازتان) .. وأدعى دون جوزيه ليزارابنجوا .. وان معرفتك الوثيقة باسبانيا لكفيلة بأن تجعلك تدرك من اسمي ياسنيور ، انني من أبناء (الباسك) واني من قوم عميق الايمان ..

واذا كنت ألقب نفسي بـ « الدون » فليس ذلك إلا عن حق وجدارة . ولو انني كنت في اليزوندو لأريتك الوثائق التي تثبت حقي في اللقب النبيل

وكان أهلي يعدونني لخدمة الكنيسة .. فقسروني على الدراسة لهذه الغاية . ولكنني لم أنتفع بدراستي كثيرا . فقد كنت جد مغرم بلعب « التنس » فكانت هذه اللعبة سر تحولي عن الدراسة فانك تعرف ان النافاريين إذا مارسوها تناسوا كل شيء عداها ..

ففي ذات يوم تغلبت على فتى من « الافا » فتحرش بي . فافتقدنا في معتقل ام ألبث أن ضربت خصمي فيه ضربا أفضى بي الى الفرار من بلدي حيث التقيت بجماعة من الفرسان فالتحقت بفرقة السواري في (الماترا) ..

ولقد جبل أبناء جبالنا على سرعة استيعاب تداريب الجندية واتقانها .. فلم ألبث أن غدوت « اونباشيا » ووعدت بأن ارقى الى درجة « باوكأمين » لولا انني عينت — لسوء حظي — ضمن حراس مصنع التبغ في سيطلة

« واذا كنت قد ذهبت الى سيطلة يوما .. فلا بد انك لاحظت ذلك المبنى الكبير القائم خارج الأسوار على مقربة من نهر الجواد الكبير .. شد ما يتمثل لعيني الآن حتى لأكاد أرى بابه ومركز الحراسة القائم عنده ..

وكان الحراس الاسبانيون يعمدون في أوقات فراغهم الى لعب الورق . أما وأنا نافاري أصيل ، فقد كنت أجهد أن أشغل نفسي بعمل نافع

« وحدث ذات يوم ان كنت مشغولا بعمل سلسلة من سلك نحاسي .. فسمعت زملائي يصيحون فجأة :

« هو ذا الناقوس يدق .. والبنات يعدن الى العمل »

ولعلك تعلم ياسنيور ان المصنع كان يضم أربعمائة أو خمسمائة امرأة يعملن في لف السيجارات والسجاير . في « عنبر » كبير لايسمح لرجل بدخوله الا باذن من مأمور المركز . لأن النساء — لاسيما الشابات منهن — يمكثن في ملابس خفيفة تكشف عن أجسامهن .. نظرا لحرارة الجو .

وكان كثير من الشبان يعترضون طريقهن اذا ما عدن الى العمل بعد الغداء بساعة .. يتعمون

أنظارهم برؤيتهن.. فقد كن من شتى أنواع النساء وقبيلات يبنهن من كن يرقصن وشاحا حريريا يتخذه مهديه سلما للتعرف والتقرب.

لذلك هرع زملائي لمشاهدتهن .. بينما مكثت في مقعدي على مقربة من الباب . .

وكنت إذذاك شابا ، أحلم بالعودة الى وطني ، ولا أومن بأن هناك من يفتن في الجمال بنات ولايات الباسك ونافار ، ذوات الأقصة الزرقاء ، والشعور الطويلة المرسلة .. كما أنني كنت أخشى الاندلسيات ، فقد كن دائمات المزاح والغمز واللمز ، لا تسمع منهن كلمة هادئة ، أو حديثا وقورا ..

لذلك لبثت منهمكا في صنع سلسلتي ، واذا بي أسمع أصواتا تهتف :

— هاهي ذي الساحرة قادمة !.

فتطلعت فوقع بصري عليها .. وكان ذلك في يوم جمعة لن أنساه ما حييت . . وكانت نفس « كارمن » التي تعرفها ، والتي وجدتك في بيتها منذ بضعة أشهر .

كانت ترتدي ثوبا أحمر ، قصيرا يكشف عن جوربيها الحريريين الأبيضين اللذين كان يتخللهما أكثر من ثقب واحد ، وعن حذاءين صغيرين من الجلد المراكشي الأحمر ، عقد على كل منهما شريط قرمزي .

وكانت تطرح وشاحها الى الخلف ليظهر كتفيها وباقة من زهور الاقحوان تزين صدر قميصها ، وقد وضعت زهرة منها في ركن فمها . . وسارت تتهادى كرشأ من رشاء قرطبة .

ولو أنها كانت في موطني لتحاشاها الناس واستغفروا ربهم ، أما في سبيطلة فقد كان كل شخص يهيل عليها عبارات الاطراء فكانت لا تجيبهم بغير نظرة من ركن عينها ، وهي ماضية في طريقها ، مثبتة يدها عند خصرها .. كشكل نورية .

ولم يرق لي شكلها في بادىء الأمر .. فعدت الى مواصلة عملي . . ولكنها وقفت أمامي جريا على عادة النساء والقطط حين يعرضن اذا دعين . . ويقبلن اذا أحسن اغضاء.

وقالت في لهجة الاندلسيات :

— هلا أعطيتني هذه السلسلة ياصديقي لأربط بها مفاتيح صندوق؟

فاجبتها :

— انما أصوغها لأربط اليها ابرة أملكها

فصاحت ضاحكة :

— ابرة !.. لعمري .. لابد أن السيد يتقن التطريز !..

وانفجر كل الموجودين ضاحكين .. فصعد الدم الى وجنتي . ولكنني عجزت عن الرد عليها .

فعادت تواصل الحديث :

— اذن فاصنع لي ياحبة قلبي سبع ياردات من (الدانتيلا) السوداء لوشاحي .

وطوحت بالزهرة التى كانت فى فمها .. فأصابت مابين عينى .. وكأنما كانت رصاصة . ولكنى لم أدر ماأفعل .. بل وقفت فى مكانى جامداً .

واختفت داخل المصنع .. ورأيت الزهرة حيث سقطت بين قدمى .. فانتهزت غفلة من زملائى والتقطتها فخبأتها فى صديرى وأنا لا أدرك ماتملكنى من شعور .

وكانت هذه أول مرة أستجيب فيها لداعى الغواية .

وانقضت ساعتان أو ثلاث . وفيما كنت لا أزال سادراً فى تأمل ما وقع . أقبل أحد الحمالين الى مركز الحراسة مسرعاً بادى الانفعال .. فأنبأنا أن امرأة قتلت فى قاعة العاملات . فأمرنى (الجاويش) أن أصحب جنديين فأتحرى ماحدث .

وما ان دخلت القاعة حتى وجدت مائتى أو ثلثمائة امرأة فى أقمصة خفيفة قصيرة يصرخن ويولولن ويتشاجرن ويثرن ضجة لايسمع خلالها قصف الرعد .

وفى جانب منهن رأيت امرأة ملقاة على الأرض والدم ينزف من طعنتين فى وجهها .

وفى الجانب المقابل لها وقفت كارمن محوطة بخمس أو ست من النساء المتعصبات . وكانت الجريحة تصيح معولة :

— الى القس أعترف له .. انى أحتضر .. سأموت ..

أما كارمن فكانت صامتة تصرف بأسنانها ، وتجيل بصرها فيما حولها كشمبرة ثائرة .

ورحت أتساءل عما حدث .. ووجدت مشقة فى استنتاج الأمر ، فقد اندفعت النسوة جميعاً يتكلمن فى وقت واحد .

والظاهر أن المرأة الجريحة كانت تتفاخر مزهوة على فريقها بأنها تحمل من النقود مايكفى لشراء حمار من سوق «تريانا» فصاحت كارمن فى تهكم :

— «ويحك !.. انك لاتملكين مايكفى لشراء مكنسة» فجرحت السخرية المرأة الأخرى ، فأجابت بأنها ليست نورية أو من بنات الشيطان حتى تحتاج إلى المكنسة ، ولكن السنيوريتا كارمن لن تلبث أن تتعرف إلى الحمار حين تكلفها رئيسة العاملات بالخروج الى الفناء لطاردة الذباب .

فصاحت كارمن : « بل انى سأحفر للذباب مساقاين على وجنتيك ، وسأقلد مراجع الحسابات حين يشير بعلامة الخرج فى الدفاتر »

وهجمت على المرأة فقطعت بالسكين الذى تقطع به أطراف السيجارات ، صليباً على خد الفتاة . .

وكانت الجناية واضحة فأمسكت بذراع كارمن وقلت فى تأدب : « يجب أن تصحبينى يا أختاه » فألقت على نظرة أشعرتنى أنها قد عرفتنى ، ثم قالت فى رباطة جأش وهدوء : « هيا بنا »

والقت وشاحها على رأسها بحيث كشف عن احدى عينيها ، وغطى بقية وجهها ، ثم تبعت الجنديين فى وداعة الحمل .

فلما وصلنا إلى مركز الحراسة ، قال « اجاويش » ان الحادث خطير ، ولا بد من اقتيادها إلى السجن .

وكنت أنا الذى انتدب لمرافقتها هذه المرة أيضا ، فجعلتها بين جنديين ، وسرت فى أثرهم ، كما تملى التقاليد الرسمية . وهكذا انطلقنا الى المدينة . .

وسارت النورية صامتة فى بادىء الأمر ، ولكننا لم نكد نبلغ «شارع الثعبان» — وانت تعرف كثرة منعرجاته والتواءاته التى تجعل له من اسمه نصيبا — حتى تركت وشاحها يهوى عن كتفيها ، وكأنما ابتغت أن ترينى جمال وجهها الفاتن ، ثم التفتت الى بقدر مااستطاعت الالتفات وقالت :

— إلى أين تأخذوننى ياسيدى الضابط ؟

فأجبتها بكل تلطف يسمح به الواجب لجندى يخاطب سجينا ، لاسيما اذا كان هـذا السجين امرأة :

— الى السجن ياصغيرتى المسكينة .

فقالت فى صوت خافت :

— واحسرتاه للمصير المنتظر ! .. الا أشفق على أيها الضابط النبيل ! .. انك شاب لطيف فدعنى أفر منكم ، وأعدك بقطعة من حجر « الحب » السحرى الذى يجتذب كل امرأة الى حبك . .

وهذا الحجر ياسنيور ، نوع من الاحجار السحرية يزعم النور أن الرجل اذا مزج بعض ذرات منه بقدح من النبيذ الأبيض وحمل امرأة على شربه ، لما استطاعت لحبه مقاومة .

فأجبتها بكل ماوسعنى من جفاء :

— لامجال هنا للهذر .. ان الأمر يقضى باقتيادك الى السجن ، والى السجن يجب أن أقودك .

وأنت تعرف أن لنا — معشر أبناء الباسك — لسانا خاصا ولكنه يستطيع أى اسبانى أن يتعرف بها علينا ، دون أن يستطيع تعلمها

لذلك لم يك من العسير على كارمن أن تعرف اننى من أهل الباسك ..

وأنت تعرف ياسنيور أن النور لايقيمون فى وطن خاص ، بل يتنقلون من بلد إلى آخر ، ويجيدون لسان كل قوم ، حتى أن معظمهم إذا أقام فى البرتغال أو فرنسا أو ولاياتنا الجبلية ،أو فى قطالونة أو أى مكان آخر ، تحدث بلسان ذاك المكان فى طلاقة لاتقل عن طلاقة أهله ..

أجل انهم يستطيعون التفاهم أينما حلوا ، حتى بين أهل مراكش أو بين الانجليز . .

ومن ثم كانت كارمن تجيد لهجة أبناء الباسك ،فقالت فجأة بلسان قوى :

— أأنت من أبناء بلادى يارفيق فؤادى ..

« ولغتنا ياسنيور جمال يستهوى قلوبنا إذا سمعناها فى الغربة .. كم أتمنى لو اعترف إلى قس

من أبناء بلادي ! . . »

نطق قاطع الطريق بالعبارة الأخيرة في صوت خافت ، وركن الى الصمت لحظة ، ثم عاد يواصل حديثه :

وأجبتها في لسان أهل الباسك ، وقد تأثرت اذ سمعته منها : « انني من اليزوندو » ..

فقالت :

— وأنا من (ايتشادر) التي لاتبعد عنها بأكثر من مسيرة أربع ساعات ، وقد خطفني النور فحملوني الى سيطلة .. ولذا كنت أعمل في مصنع التبغ لأوفر المال اللازم الذي يمكنني من العودة الى موطني في نافار ، والى أمي العجوز المسكينة التي لايعولها أحد ، ولا تعتمد في معيشتها الا على بستان صغير به عشرون شجرة تفاح .. آه !.. ليتني كنت في بلدي ، بين الجبال البيضاء ! .. لقد أهانوني لأنني لست من ذلك الشعب الذي ينجب المضللين الخداعين باعة البرتقال الفاسد وما خاصمتني تلك النسوة الا لأنني صارحتهن بأن كل فحول سيطلة مسلحين بخناجرهم ، لايستطيعون مجتمعين ان يرهبوا صبيا من مواطنينا .. أفليس في وسعك ياصديقي أن تؤدي خدمة لابنة بلدك ؟ . .

كانت تكذب ياسنيور ، وانها لتكذب دائما ، وما أظن أن هذه الفتاة قالت في حياتها كلمة صدق واحدة . ولكنني صدقتها حين سمعتها تتكلم ، فقد استطاعت أن تؤثر على عواطفي . . مع أنها كانت تنطق لغة الباسك في ركاكة وتحريف ، إلا أنني آمنت حقا بأنها انحدرت من نافار ، وان كانت عيناها وحدهما ، وفمها ، وبشرتها ، تنطق صارخة بانتمائها الى النور .. سحرتني ، فلم أعد أحفل بشيء . .

واستعرضت ماكنت أفعل اذا كنت في موقفها وسمعت أحدا من الاسبانيين يعيب في حق بلادي ، فبلغت بأنني ماكنت أتردد في أن أقطع وجهه كما فعلت بزميلتها . . صفوة القول أنني كنت كالثمل ، ورحت أتكلم كالأحمق ، وأحسست أنني على استعداد لأن أفعل ماتشاء ..

وعادت تقول في لغة الباسك :

— لو أنني دفعتك ياموطني فسقطت على الارض لما استطاع هذان الاسبانيان أن يلحقا بي .

وتناسيت أوامر رؤسائي ، بل وتناسيت كل شيء ، فأجبتها :

— حسنا ياصديقتي وموطنتي . حاولي ، ولتساعدك آلهة جبالنا!

وكنا في تلك الأثناء نجتاز أحد الدروب الضيقة التي تتخلل « شارع الثعبان » والتي يكثر أمثالها في سيطلة فتحولت كارمن بغتة ودفعتني بقبضة يدها في صدري ، فتعمدت الوقوع على الأرض.

وفي قفزة واحدة ، تخطتني وفرت راكضة في خفة تفوق الناظر ، كاشفة عن ساقين لاأدري كيف أصفهما لك ، ولكنني أذكر أنهما يشيدان بجمال سيقان بنات الباسك ، وكانت ساقا كارمن تفوقان كل هذه السيقان في جمال تكوينهما وفي تناسقهما .

ونهضت مسرعا ، ولكنني تعمدت أن التقط حربتي فأمسك بها بحيث تسد الدرب الضيق

وتعترض طريق زميلى أبضع ثوان فتعطلهما عن الانطلاق فى أثر الفتاة .. ثم اندفعت أجرى ، وهما فى أثرى ، ولكننى لم أعد أخشى أن يلحقا بها ، لاسيما وقد كنا جميعا مثقلين بحرابنا وسيوفنا وأحذيتنا الثقيلة .

وفى سرعة عجيبة تفوق الوصف ، كانت قد اختفت .. فضلا عن أن من صادفونا فى الطريق زادوا من عطلنا ، وراحوا يدلون لنا بارشادات خاطئة ضللتنا .

وبعد أن جرينا طويلا هنا وهناك وفى كل اتجاه ، اضطررنا الى العودة الى مركز الحراسة دون أن نحمل ايصالا من مدير السجن يثبت وصول السجينة

وتخلص زميلاى من العقوبة بأن ذكرا أن كارمن كانت تتحدث الى بنفسه أبناء الباسك ، وأن من غير المعقول أن تكون دفعة خفيفة من قبضة فتاة كافية لأن تلقى برجل قوى مثلى الى الارض .

فأثار هذا كله الشكوك حولى ، فأطلق سراح الزميلين ، وخفضت رتبتى العسكرية وزججت فى السجن شهرا .

وكانت هذه أول عقوبة أجازى بها منذ التحقت بالفرقة .. وهكذا ودعت الاشرطة التى كنت واثقا من أنها لن تلبث أن تزين ساعدى ، اذا ماارقيت الى رتبة « بلوك امين » .

وانقضت أيام السجن الاولى وأنا مستسلم للحزن والهم .. كنت آمل حين تطوعت للجندية أن أغدو يوما ضابطا ، ولا عجب ، فان اثنين من مواطنى — لونجا ، ومينا — بلغا درجة « الكابتن جنرال » كما كان (شابلنجارا) الزنجى الذى فر لاجئا الى بلادك « كولونيلا »

وكنت أحدث نفسى قائلا :

— لقد ضاع هباء كل الزمن الذى قضيته فى الخدمة دون أن تأتى فيه مايدعو الى معاقبتك . وهاأنتذا اليوم وقد فقدت سمعتك فلا بد لك من أن تعمل عشر أمثال ما كنت تعمل وأنت متطوع حديث العهد .. حتى تستعيد رضا ضباطك عنك ..

وفى سبيل من جلبت العقاب على نفسك ؟ . فى سبيل غانية نورية ضحكت منك . ولا بد أنها الآن حرة طليقة فى أحياء المدينة . بينما تقبع أنت فى السجن .

ومع ذلك فانى لم أكن أعالك أن أفكر فيها .. حتى جورباها البالبان كانا يتمثلان أمام عينى . فهل تصدق هذا ياسنيور ؟ .

كنت أتأمل النسوة المارات فى الطريق — خلال قضبان سجنى — فلا أرى من تدانى تلك الشيطانة الصغيرة .

وكنت أشم الزهرة التى رمتنى بها . والتى كنت لاأزال أحفظها ، فأنتشى بعبيرها ، رغم الذبول الذى تطرق اليها .

ولو أن فى الدنيا ساحرات . فهذه الفتاة بالتأكيد واحدة منهن ؟

الفصل الرابع

وأمسك عن الكلام ريثما يعيد اشعال سيجاره الذى كان قد انطفأ . ثم عاود الحديث قائلا :

— وأقبل حارس السجن ذات يوم فدفع الى برغيف من خبز « القلفة » . . انك ولاريب تعرف هذا الخبز اللذيذ الطعم الذى اختصت بلدة « قلعة دى لوس بانادروس » بعمله ، والذى يتهافت عليه أهل سبيطلة فى شغف .

وقال الحارس : « انظر ماذا احضرت لك ابنة عمك »

ودهشت كل الدهشة فما كانت لى بنات عم فى سبيطلة .

ووقر فى نفسى ان الحارس قد اخطأ ، فحمل الى رغيفا كان مرسلا لسواى ..

ولكننى رغم ذلك قررت ان استبقيه . فلما شرعت اقتطع منه لقمة — بعد انصراف الحارس— اصطدم نصل سكينى بجسم حاد . . وما لبثت ان تبينت انه مبرد صغير من الصلب الانجليزى ، دسه شخص ماق عجينة الرغيف قبل ان يدفع به فى الفرن .. وعثرت كذلك على قطعة نقود ذهبية صغيرة . .

فلم يبق عندى شك فى ان الرغيف انما اهدى الى من كارمن ، فان الحرية لدى ابناء جنسها هى كل الحياة ، فلا يتردد الفرد منهم فى ان يحرق مدينة بأسرها ليتفادى السجن ، ولو كان سجنه ليوم واحد فقط .

ثم ان الفتاة كانت خبيثة ماكرة ، فلا بد انها اغرت الحارس برغيف آخر لذيذ كى يحمل الى ذاك الرغيف .

وكان من اليسير ان اعمل المبرد فى قضبان السجن فلا يلبث اغلظها ان يتداعى خلال ساعة ، وان اعرج —بعد فرارى —على اول متجر للثياب القديمة فابتاع بقطعة الذهب ملابس عادية .

ولن يشق على رجل مثلى اعتاد ان يسرق النسور من أوكارها ، ان يقفز الى الطريق من نافذة لايزيد ارتفاعها عن ثلاثين قدما .

بيد اننى كنت لاأزال احرص على شرفى كجندى ، وكنت أرى الفرار جريمة كبرى .

وان كنت فى الوقت نفسه قد تأثرت لهذه الهدية التى اشعرتنى باننى لاازال موضع ذكرى ! فليس احب على السجين من ان يفكر فى ان ثمة خارج السجن من يذكره .

وخيل الى ان قطعة النقود قد مست كبريائى ، فوددت لو رددتها ثانية ، ولكننى وجدت ان من العسير الوصول الى تلك التى اقرضتنيها .

وكنت اظن ان اقسى ذلة سأظل آلم لها طيلة حياتى ، هى اجراءات تجريدى من رتبتى العسكرية علانية .

بيد اننى لم البث ان صدمت بذلة أخرى عقب اطلاق سراحى بعد ان امضيت المدة التى حكم على بها ، فقد عدت الى الخدمة كنفر عادى . وليس فى وسعك ان تتصور كيف تحز مثل هذه الاحوال مشاعر المرء واحساساته النفسية فان لاسير فى مقدمة الزملاء فرحة وزهوا حرمتها بعد خروجى من السجن ، اذ عينت تابعا أقف على باب ضابط برتبة « الكولونيل » كان فى مقتبل العمر ، غنيا ، طيبا ، مشغوفا باللهو والعبث .

فكانت داره تضم كل الضباط الشبان .. وكثيرا من أهل المدينة ، ومن النساء ، أو الممثلات كما كن يدعين .

وخيل الى ان أهل المدينة جميعا قد اتفقوا على ان يلتقوا عند باب ذلك الضابط لينظروا الى .

ومالبثت ان رأيت عربة الضابط مقبلة .. فمن تظنها كانت تقل ؟. النورية الساحرة وقد اتخذت كل زينتها وزخرفها ، وارتدت ثوبا رصع بقطع معدنية صغيرة لامعة ، وحذاءين زرقاوين بث فيهما مثل تلك القطع ، واحاطت بها الورود والزهور من كل جانب ، وقد امسكت فى يدها دفا من دفوف الباسك .

وكانت تصحبها امرأتان اخريان من النور ، احداهما شابة والاخرى عجوز ، فقد اعتادت بنات النور ان يرافقن العجائز أينما ذهبن .

كذلك كان معهن رجل نورى يمسك قيثارة ليعزف عليها حين ترقص الفتاتان . . انك ولا ريب تعرف ان الموسرين يستجلبون النوريات عادة فى حفلاتهم ليروحوا عن انفسهم بمشاهدة رقصهن القومى ، وليحظوا منهن بمتع أخرى ، لاحاجة بى لذكرها .

واذ التقى بصرى ببصر كارمن تذكرتنى ، ولست أدرى لم تمنيت اذ ذاك لو ان الارض مادت بى وابتلعتنى . وسمعتها تقول :

— طاب يومك ياضابطى العزيز .. اذن فقد غدوت تابعا كأى جندى حديث العهد !

وقبل ان تسعفنى قريحتى بجواب ملائم . . كانت قد غابت داخل الدار .

وكانت الحفلة فى حديقة الدار فاستطعت ان أرى خلال الباب كل ماحدث فيها . . وان اسمع صوت القيثارة ودقات الدف .. والضحكات العالية . . ودوى التصفيق .

واستطعت من حين الى آخر ان أرى رأسها وهى تقفز فى الهواء بدفها . . ثم سمعت الضباط يزجون اليها من الوان الكلام ماأثار الدماء حارة فى عروقى . . وان كنت لم ادر بما راحت تجيبهم . . ومنذ ذاك اليوم — على ماأظن — بدأت أحبها حقا .

وحفزتنى عواطفى ثلاث أو أربع مرات الى ان اندفع الى الحديقة فأقطع بسيفى رؤوس اولئك الرقعاء الذين كانوا يغازلونها

ولكننى كنت اكبح نفسى .. فظللت ساعة طويلة والغيظ يغرى قلبى .. ثم غادرت النوريات الدار .. فاستقللن العربة .

واذ مرت بى كارمن وهى خارجة . . رمتنى بنظرة من عينيها — وانت تدرى فتك لحظهما — ثم قالت فى صوت خافت :

— ان خير مطعم تحصل منه على اشهى أنواع السمك يامواطنى هو مطعم ليلاس باستيا . . فى تريانا . .

ثم قفزت الى العربة فى خفة الظبى . . والهب السائق خيله فانطلقت الى حيث لاأدرى .

وفى وسعك أن تدرك من تلقاء نفسك إنى انتهزت أول عطلة لى . فذهبت الى تريانا بعد أن

تزينت وتأنقت وكأنني أتأهب لموكب عرس فخم ..

ووجدتها في مطعم ليلاس باستيا ، وهو نوري أسود عجوز يقبل مناص على مطعمه لتناول سمكه اللذيذ . وأظن ان اقبالهم قد ازداد منذ هبطت كارمن مطعمه .

فلما رأتني صاحت بالرجل :

— « لن أمضي في عملي اليوم بالليلاس .. وليس الغد ببعيد . تعال يا مواطني نطلق في نزهة .. »

وألقت وشاحها على رأسها بحيث أخفى وجهها . وما لبث أن وجدتنا في الطريق قبل أن أعرف الى أين نحن ذاهبان

فقلت وقد غدونا في عرض الطريق :

— أعتقد أن من واجبي ياسنيوريتا أن أشكرك على هدية أرسلتها لي في سجني .. لقد أكلت الخبز ، وسأستعمل المبرد في ارهاف حربتي .. سأحفظه تذكارا لك ، أما النقود فها هي ..

فقهقهت ضاحكة وصاحت :

— يا لله ! لقد حفظ قطعة النقود حتى الآن .. هذا جميل على كل حال ، فليس في ذلك ما يجرح شعوري .. ولكن .. ألا ترانا نوشك أن نموت جوعا ؟

وكنا قد اتخذنا سمتنا نحو سيبطلة . فلما بلغنا ناصية (شارع الثعبان) ابتاعت بعض البرتقال حملته في منديلي ، ثم اشترت خبزا ولحما مقددا وزجاجة نبيذ ..

وولجت أخيرا حانوت بائع حلوى ، فألقت القطعة الذهبية — التي رددتها اليها — الى البائع ، وأضافت اليها قطعة اخرى من جيبها ، وبضع قطع فضية . ثم سألتني كل ما معي من نقود . ولم اكن أحمل غير القليل فقدمته في استحياء ..

وخيل الى أنها تود لو تبتاع كل ما في المتجر من حلوى وفواكه محفوظة .. وفعلا اشترت منها بكل النقود ، فحملت كل هذا في اكياس من الورق ثم يممنا شطر (شارع كانديليجو) — ولعلك تعرفه — فوقفنا أخيرا أمام بيت قديم ، نفذت الى ردهته ثم دقت الأرض بقدمها فأقبلت نورية شمطاء بادرتها كارمن ببضع كلمات باللغة الرومانية ، تلقتها مزمجرة .. !

ولكن كارمن دفعت اليها ببرتقالتين وحفنة من الحلوى ، فأسرعت العجوز تأتزر بينما راحت كارمن تدفعها الى الباب وتقفله خلفها وتحكم غلقه بمزلاج خشبي .

وما أن غدونا على انفراد حتى راحت ترقص وتضحك كما لو كانت قد اصيبت بخبل .. وتترنم بأغنية نورية مطلعها :

« أنا لك وأنت لي .. أنت زوجي وأنا زوجك »

ووقفت وسط الحجرة مثقلا بحملي لا أدرى أين أضعه . فأقبلت تطرحه أرضا وتعانق برقبتي صائحة :

— « انني أرد اليك ديني .. انني اسدد مالك عندي .. هكذا ينص قانون الفجر .. اواه

يا سنيور ! .. ياله من يوم أتناسي كلما فكرت فيه غدي »

ولاذ قاطع الطريق بالصمت لحظة ريثما يشعل سيجاره من جديد . ثم عاد الى حديثه :

— وظللنا معا طيلة اليوم نأكل ونشرب ونرتشف الملذات .. لم تدع حيلة أو حافة أو غواية الا أبدتها لى .. وصارحتها برغبتى فى أن أراها ترقص أمامى ، فلما لم تجد (صاجات) عمدت الى الطبق الخزفى الوحيد فى مسكن الثورية فكسرته واتخذت من حطامه (صاجات) ..

وما كان أجلها وهى تؤدى رقصة الفجر مترقعة بقطع الخزف كأنها (صاجات) صنعت من الابنوس أو العاج !

لعمرى ما أعتقد أن شخصا يشعر بسأم أو ملالة فى رفقة هذه الفتاة !

وحان المساء . وسمعت البوق يدعو الجنود الى ثكناتهم . فقلت لها :

— « لابد لى ان أعود الى مركز فرقتى »

فصاحت فى استنكار :

— « تعود !؟ أتراك إذن عبدا رقيقا تساق بالسوط ؟ يالك من تابع ذليل حقا .. اذهب فما أرى فى صدرك سوى قلب اعتاد الخوف والخنوع »

ومكثت بقربها غير عابىء بما يترتب على ذلك من عقاب . فلما كان الصباح ، كانت هى البادئة بالحديث عن الفراق . فقالت :

— « اسمع يا عزيزى .. أتراني أديت لك الدين كاملا ؟ .. إننى غير مدينة لك بشىء طبقا لقوانيننا ، فانك لست منا ، ولكنك وسيم جميل . وأشهد انك أعجبتنى .. لقد آن لنا أن نفترق .. فوداعا »

فسألتها متى أراها ثانية .. فضحكت وأجابت :

— « عندما تغدو أقل غباء مما أنت ! »

ثم استطردت فى لهجة جادة :

— « أتعرف يارفيقى انى أعتقد انى أحبك شيئا ما ؟ .. ولكن هذا لن يدوم . فليس فى وسع الذئب والكلب أن يعيشا طويلا فى بيت واحد .. ولقد أحب أن أغدو زوجتك اذا أنت اعتنقت مبادئنا وانضويت تحت لواء قوانين الثور .. ولكن هذا محض هراء .. فما أراه أمرا ممكنا ..

اواه يا فتاى .. صدقنى انك بخير طالما كنت بعيدا .. لقد وقعت على الشيطان بعينه ممثلا فى شخصى ..

ما كل ذى فراء حمل .. اجر فاشعل شمعة أمام عذرائكم ، فهى تستحقها إذ أنقذتك من براثنى .. هيا تنصرف .. وداعا مرة اخرى ولا تفكر ثانية فى كارمنسيتا ، وإلا حكمت على زوجتك بالترمل قبل أن تراها أو تتزوجها ، فلن ألبث أن أقودك الى المشنقة »

ورغمت الزلاج من الباب ، ونفذت الى الطريق ، فأنتفت فى مئزرها ، وانطلقت لا تلوى على شىء . .

وكانت على حق فيا قالت ، ولو اننى ترويت وحكمت العقل لكان خليقا بى أن لا أفكر فيها ثانية . ولكننى لم أعد أفكر فى سواها منذ ذاك اليوم الذى قضيناه معا فى « شارع كانديليجو » فكنت أطوف بذلك الشارع آملا فى أن التقى بها ، ورحت أسأل عنها المرأة العجوز وبائع السمك ، فكانا يجيبانى بانها رحلت إلى (الأرض الحمراء) وهو الاسم الذى يطلقه الغجر على بلاد البرتغال ولعلهما كانا يقولان ذلك بايحاء من كارمن ، ولكننى لم البث أن كشفت عن كذبهما . . فبعد بضعة أسابيع من ذلك اليوم ، كنت أقوم بالحراسة عند أحد أبواب المدينة . . وكان ثمة خرق أحدث فى جدار السور ، على مقربة من ذلك الباب ، فكان العمال يشتغلون فى سده طيلة النهار ، بينما كنت منوطا بحراسته فى الليل . .

ففى ذلك اليوم ، رأيت ليلاس باستيا يتسكع حول مركز الحراسة ، يجاذب بعض زملائى أطراف الحديث ، اذ كانوا جميعا يعرفونه

وما لبث ان اقترب منى فسألنى عما إذا كنت قد سمعت نبأ عن كارمن ، ولكننى اجبته سلبا فقال:

— « حسنا ، لن تلبث ان تسمع عنها ايها الصديق »

ولم يكذب .. ففى ذلك المساء ، قمت بالحراسة عند ثقب السور .. وما أن مر بى الضابط ليتوثق من وجودى ساهرا ، حتى رأيت امرأة تقترب ، فحدثنى قلبي انهـا كارمن . ولكننى رغم ذلك صحت فيها : « ابتعدى .. المرور هنا ممنوع » .. ولكنها قالت وهى تكشف عن وجهها : « صه ، لا تكن احمق » ، فهتفت : « من ! .. اهذه انت يا كارمن ؟ » فاجابت :

— « أجل يا ابن بلدى .. دعنى أحدثك عما جئت من أجله .. أتريد أن تكسب مالا ؟ .. سيأتى بعض الرجال يحملون اكياسا ، فدعهم ينفذون خلال خرق السور » . فقلت : « محال ، بل يجب أن أمنعهم هكذا تقضى الأوامر » فقالت :

— الاوامر ! . لم أرك تفكر فى الأوامر حين كنا فى شارع كانديليجو ؟ » فصحت وقد ثارت فى نفسى الحسرة التى خلفتها هذه الذكرى : « لأننا قضينا وقتا يستحق أن أنسى من أجله كل الأوامر ، ولكننى لا أقبل رشوة من مهربين » فاجابت : « فهمت .. اذن تعال نتساوم .. إذا كنت تصدف عن المال ، فهل تحب أن تتعشى مرة أخرى فى منزل دوروتيا العجوز ؟ . . »

فاجبتها وقد أختنق صوتى لفرط ما كنت أبذل من جهد لمقاومة الاغراء : « لا .. لا أستطيع »

فقالت تستثيرنى وتتحدانى : « جميل جدا ! .. ما دمت تصر على عنادك ، فسألجأ الى من يقبل ما اعرض عليك .. سأدعو رئيسك الى دار دوروتيا ، اذ يبدو لى انه شاب طيب ولن يلبث أن يقيم مكانك فى الحراسة صبيا لا يتشبث بما لا ينبغى لك أن تتشبث به .. فوداعا أيها الجندى الرعديد .. سأضحك حين تصدر الأوامر بشنقك ! »

وحملني شغفي على أن أناديها اذ همت بالانصراف . فأعدها بأن أسمح لمن تشاء بالمرور . ولو تمكن من في السكون من عجز . على أن أنال الجزاء الذي أصبو اليه .

فأقسمت أن تلقاني في اليوم التالي لتؤدي هذا الجزاء .. ثم هرعت تدعو أصدقاءها الذين كانوا يكمنون على مقربة .

وكانوا خمسة بينهم باستيا — حملوا أثقالا من السلع الانجليزية . فراحوا ينقلونها خلال ثغرة السور . وكارمن ترقب الطريق لتنذرهم اذا أوجست خطراً . . ولكنها لم تجد مايدعو لذلك وسرعان ماأدى المهربون مهمتهم في أمان . .

وقصدت شارع كانديليجو في اليوم التالي .. فوجدت كارمن في انتظاري عابسة مستاءة فلما سألتها عما بها . بادرتني قائلة :

— انني لاأحب الذين ينتظرون أن أتوسل اليهم وأعدهم بالجزاء اذا سألتهم صنيعا .. لقد أسديت الى خدمة كبرى — في المرة الأولى — دون أن تفكر في أن تتقاضاني ثمنا ، أما بالأمس فقد ذهبت تساومني .. لست أدري لم أتيت فانني لم أعد أحبك .. هيا واغرب عن وجهي .. وهاك جنيها ثمن ماتكلفت من عناء . .

وكدت ألقي بقطعة النقود في وجهها .. وبذلت مجهودا شاقا في كبح جماح غضبي حتى لاأنهال عليها ضربا .

وما لبثت بعد أن قضينا ساعة في شجار . أن اندفعت مغادراً الدار وأنا أكاد أنفجر غيظا فظللت أجوب أرجاء المدينة دون وعي كما لو كنت قد جننت . حتى قادتني قدماي أخيرا الى كنيسة ولجتها . وجلست في أكثر أركانها ظلمة . ثم .. أطلقت لدموعي العنان . وانفجرت باكيـا . واذا بي أناجيا بصوت ينبعث من خلفي قائلا :

— «أهي دموع التماسيح ، أم دموع جندي لاتبكيه غير أقسى الظروف ؟. بودي لو استطعت أن أحللها وأعرف حقيقتها ! .»

تطلعت فرأيت كارمن واقفة .. وسمعتها تواصل الحديث قائلة :

— «حسنا يامواطني .. أما زلت ترغب في ؟ . انني ولا شك أحبك ، رغم كل ماحدث ، فانني لاأدري ماذا اعتراني منذ خلفتني وانصرفت .. ! تعال .. أنا التي أسألك هذه المرة ما اذا كنت تحب أن تذهب معا الى شارع كانديليجو » .

وهكذا تصالحنا . ولكن طباع كارمن كانت تشابه جو بلادنا ، حيث لاتهب العاصفة هوجاء عاتية ، الا حين تكون السماء في أبهى صفائها

فقد وعدتني بعد ذلك أن تلقاني مرة أخرى في بيت دوروثيا ، ولكنها لم تبر بوعدها ، وراحت العجوز تؤكد لي أنها رحلت الى « لالورو » في مهمة تضطرها الى النزوح عن اسبانيا

ولما كنت قد أدركت بالتجربة أنني لايجب أن أعتمد على كلام النورية العجوز ، فقد أخذت أبحث بنفسي عن كارمن في كل مكان أتوقع أن أجدها فيه

وكنت أمر بشارع كانديليجو عشرات المرات في اليوم الواحد ، وأنا هائم على وجهي —

الى أن كان ذات يوم . وقد قصدت دار دوروثيا التى استطعت — فى تلك الاثناء — أن أروضها وأن أكتسب عطفها بما كنت أقدمه لها بين الفينة والفينة من شراب . فقيم أنا مع العجوز . اذا بكارمن تدخل الدار وفى أثرها ضابط من فرقتنا . فبادرتنى صائحة بلسان الباسك : « اخرج من هنا ! »

ووقفت مشدوها . والغضب يعتمل فى صدرى .. فما لبث الضابط أن صاح :

— ماذا تفعل هنا أيها الجندى ؟ . اخرج ! .

ولكننى لم أحر حراكا .. فقد أحسست كأننى أصبت بشلل .. فلما رآنى الضابط لاأزايل مكانى . بل ولا أكاد أحفل به .. أمسك بعنقى فى غضب وراح يهزنى هزا عنيفا . ولا أدرى ماذا قلت له . ولكنه سرعان ماجرد سيفه .. كما جردت سيفى

وأمسكت العجوز بذراعى . فاستطاع الضابط أن يحدث فى جبينى هذه الندبة التى لاتزال آثارها باقية حتى اليوم ..

فتراجعت الى الخلف خطوة .. وأمسكت العجوز فى قوة دفعتها الى الأرض وخلصت ذراعى ثم تحولت أواجه الضابط وهو يتبعنى .. وتلقيته بذباب سيفى فاخترقت صدره

وبادرت كارمن فأطفأت المصباح .. وصاحت فى دوروثيا بلغة النور أن تسارع الى الفرار . وهرعت بدورى الى الطريق هاربا . فطفقت أعدو على غير هدى . وأنا أشعر أن شخصا يقفو أثرى.. ويسرع فى أعقابى ..

ولما تمالكت نفسى . التفت أتبين ذلك الذى كان يتعقبنى .. فاذا بى أجد كارمن .. .. صاحت بى :

— «يالك من غبى أحمق .. كل ماتعرفه فى دنياك هو ارتكاب أشنع الحماقات .. اما أنذرتك بأنى سأجلب لك النحس وسوء الحظ .. ومع ذلك فلكل داء دواء مادامت لك حبيبة من بنات النور . أعصب جبينك اولا بهذا المنديل حتى توقف الدماء التى تنزف من جرحك .. واعطنى منطقتك .. ثم انتظرنى فى هذا الزقاق الضيق .. فلن أغيب أكثر من دقيقتين » .

واختفت عن ناظرى لتعود بعد قليل بعباءة مخططة لا أدرى أين عثرت عليها ، فطلبت الى أن أخلع بزتى ، وأن أتدثر بالعباءة فوق القميص . فأصبحت فى مظهرى أشبه بفلاحى فالنسيا الذين يفدون على سيطلة لبيع محصولاتهم .

ثم قادتنى الى بيت يشبه بيت دوروثيا فى مكان ما على مقربة من ساحة ضيقة . وأقبلت مع عجوز نورية اخرى تغسلان جرحى وتضمدانه كأمهر أطباء الجيش . ثم دفعتا الى بشراب لا أعرف نوعه وأرقدتانى على حشية ، فما لبثت أن استغرقت فى نوم عميق .

ومن المحتمل انهما دستا فى الشراب الذى قدمتاه لى ، نوعا من عقاقير النور المخدرة التى لايدرى غيرهم سرها ، لأننى ظللت فى نوى حتى ساعة متأخرة من النهار التالى . فلما استيقظت كنت أحس صداعا قاسيا وحمى تسرى فى أوصالى .

وانقضت فترة من الوقت قبل أن أتذكر المأساة المروعة التى لعبت فيها الدور الأول فى المساء

تسابق . .

وإذ استشعرت كارمن وعجوزها يقظتي ، أسرعتا تتفقدان جرحي وتغيران ضمادته . ثم قبعتا الى جوار الحشية التي أرقد عليها . وتبادلتا بضع كلمات بلغتهما . خيل الى انهما تشاورتا خلالها في أمر مصيري . ثم أقبلتا تطمئناني الى انني لن ألبث أن أشفي عما قريب . وتنصحان لي أن ابادر بمغادرة سيطلة في أقرب فرصة ممكنة خشية أن يعثر على فلا يكون جزائي إلا الموت رميا بالرصاص

وقالت كارمن :

— « لم يبق في استطاعتك أن تعيش من خبز الملك ، وعلى ما يمنحه جنوده من ارز أو سمك مملح . بل سيكون لزاما عليك أن تفكر في كسب قوتك بعرق جبينك . .

انك غبي لاتحسن التنقل . ولكنك قوي نشيط خليق بالأعمال الشاقة العنيفة . ولو كنت جريئا لاتخذت سمتك صوب الساحل واندمجت في زمرة المهربين . . أما أنذرتك انني لن ألبث أن أقودك الى المشنقة ؟ !

إن هذا خير على كل حال من الموت رميا بالرصـــاص . . ثم انك اذا عرفت كيف تدبر أمرك وتسلك أصلح السبل . . فقد يتاح لك أن تحيـــا حياة الامراء ، ما لم تقع في أيدي الجنود وخفر السواحل . . »

وهكذا دلتني تلك الشيطانة في ساعة يأسي وارتباكي على طريق الحياة التي ارتضتها لي واعتزمت أن تسوقني اليها .

والواقع انها كانت الحياة الوحيدة أمامي بعد أن غدوت مهددا بعقوبة الاعـدام . وما أراني في حاجة لأن أذكر لك انها استطاعت أن تحملني على القبول دون أن تتجشم كثير عناء . فقد خيل الى انني بهذه الحياة الآثمة المحوطة بالأخطار ، أستطيع أن أرتبط بفتاتي برباط أكثر توثقا ومتـانة . . وظننت انني أستطيع منذ ذاك الحين أن أطمئن الى حبها لي

وكنت قد سمعت في كثير من المناشبات عن عصـابة مهربين اتخـذت من الأندلس مسرحا لنشاطها . . فـكان رجالها ينطلقون في مغامراتهم على صهوات الجياد مشهرين مسدساتهم وقد أردفوا عشيقاتهم خلفهم . . فرحت أتمثل نفسي بعين الخيال أمتطي جوادا يركض بي بين التلال والهضاب وعشيقتي النورية الحسناء خلفي .

وكنت اذا حدثتها بذلك أغرقت في الضحك وذكرت لي أن ليس في الحياة أحب من قضاء ليلة بين الوهاد ، حيث يأوى كل زوج وزوجه . . أو عشيق وخليلته الى خيمة صغيرة تقام من ملاءة تنصب على ثلاث عصي . .

فكنت أقول لها :

— « لو انني أقمت بقية العمر بين الجبال ، لاطمأننت من ناحيتك . . ولوثقت من أن أحدا من الضباط لن يشاطرني إياك . . »

فكانت تجيبني قائلة :

— « آه ! .. انك غيور ، وهذا مما يزيد حظك سوءا .. أبلغت هذا الحد من الغباء حقا ؟ ألا ترى انني أحبك ؟ ألا يكفي دليلا على هذا الحب انني لم اطالبك قط بمال أو أجر ؟ »

وكنت كلما امتنت على في هذه اللهجة وددت لو أستطيع أن أخنقها خنقا

الفصل الخامس

واستطرد بعد لحظة يقول :

— ان اطيل عليك ياسنيور .. فسرعان ما أحضرت لى كارمن لباسا عاديا مما يلبسه المدنيون ، فارتديته في فراري من سيطلة . فلم يكشف عن حقيقتي أحد . وتممت شطر (جرز) مزودا بخطاب من بستيا الى نورية اعتاد المهربون أن يلتقوا في بيتها . فقدمتني اليهم .. فضمني زعيمهم — الذى كان يدعى دانكاير — الى عصبته . ورحلت معهم الى (جوسن) حيث رأيت كارمن مرة اخرى كما وعدتني من قبل

وكانت كارمن تساهم في مغامراتنا فتعمل كجاسوسة .. والحق اننا ما كنا لنجد من هى خير منها ..

فعند ما التقيت بها في المرة الاولى — بعد انضمامي للعصبة — كانت عائدة من جبل طارق حيث اتفقت مع ربان إحدى السفن على أن ينقل الى البر بعض السلع الانجليزية التي كنا نترقبها . فكنا ننتظرها عند الساحل على مقربة من (ايستبونا) حتى اذا تم نقلها أخفينا بعضها في الجبال ، وحملنا الباقي الى (روندا) حيث كانت كارمن قد سبقتنا

وكانت هي التي أنبأتنا باللحظة المناسبة التي نستطيع أن نلج فيها المدينة آمنين

ولذت لى حياة المهربين ، فقد كانت تلك المغامرة ، وبعض المغامرات التي تلتها ، موفقة ناجحة فاستطعت أن أقدم لكارمن كثيرا من الهدايا .. وصفا لى الزمان اذ حباني بمال وعشيقة حسناء .

ولم أشعر بالندم أو أعان وخز الضمير ، فان متعة الحياة كفيلة بان تخنق صوت الضمير . ومما ساعد على ذلك أنني كنت أينما ذهبت أقابل من زملائي بكل اكرام ، بل وكان رفاقي يبدون لى بعض الاحترام ، اذ كنت قد قتلت مزاحمي في الغرام ، وهى تجربة لم يمر بها أحد منهم .

ولكن الأثر الأكبر كان يرجع الى أنني أصبحت أجد نفسي مع كارمن في فرص كثيرة وقد زاد ما كانت تبديه لى من ود ، وأخذت تظهر لى من العواطف مالم تظهر من قبل .

ومع ذلك فقد كانت تتحفظ أمام زملائنا ، فلا تبدى مانم عن علاقاتنا ، بل وكثيرا مااستحلفتني بأغلظ الايمان أن لاأفضي اليهم بشيء من قصتي .

وكان أفراد عصبتنا — وهم ثمانية أو عشرة رجال — قلما يتفقون جميعا ، اللهم الا فى اللحظات التى تعين لاتخاذ قرارات خطيرة ذات أهمية فى مغامراتنا

فكنا عادة نتفرق كل اثنين أو ثلاثة معا فى مدينة أو قرية .

وكان كل منا يتظاهر أمام الناس انه يمارس احدى الحرف . فكان من نصيبى أن أزعم انى اسكافى ، ولكننى فى الواقع كنت لا أبدو فى المدن الكبيرة الا نادرا ، لما سبق أن ارتكبته من الأعمال فى سيطلة ..

إلى أن كان ذات يوم — أو بالاحرى ذات مساء — وقد خففت الى « فيجير » حيث كنا على موعد للاجتماع ، فلم أجد من سبقنى الى المكان سوى دانكاير الذى بدا لى فرحا شديد الابتهاج واذ رآنى ، بادرنى قائلا :

— « ستستقبل زميلا آخر عما قريب .. فقد قامت كارمن بمغامرة من خير مغامراتها اذ دبرت أخيرا حيلة مكنت رجلها من الفرار من سجن تاريفا » ..

وكنت اذ ذاك قد بدأت افقه اللغة النورية ومصطلحاتها . اذ كان كل زملائى — تقريبا — يتحدثون بها فلما سمعت كلمة « رجلها » سرت فى جسدى رعدة باردة وسألت الزعيم : « ماذا ؟. رجلها ؟ . اذن .. فهى متزوجة ؟ »

فأجابنى :

— « أجل .. انها متزوجة من جارسيا الأعور . وهو نورى على شاكلتها فى الدهاء والخفة وسعة الحيلة .

وكان المسكين سجينا .. ففتنت كارمن طبيب السجن واستطاعت بذلك أن تمكن زوجها من الفرار آه ! .. ان هذه الفتاة تقدر بوزنها ذهبا ..

لقد ظلت عامين تسعى لتدبير امر هربه .. ولكن حيلها لم تنجح الا حين بدلوا رجال السجن فاستطاعت أن تغرى ذاك الرجل سريعا » .

وفى وسعك أن تتصور ماخالجنى من مشاعر عند ماقابلت جارسيا بعد ذلك بوقت قصير .. كان أعور .. وكان أقبح وغد انجبته بوهيميا لايفوق بشرته سوادا سوى روحه .. وكان افظع شقى قابلته فى حياتى .

وصحبته كارمن عند ماأقبل .. وكم فاتك أن ترى ما كانت تبديه بعينيها من غمزات واشارات تطلقها من وراء ظهره كلما نادته بزوجها حتى تخفف عنى ماأشعر به من غيرة . واحفظنى ذلك عليها فلم أخاطبها طيلة ذلك المساء

فلما كان الصباح التالى شددنا رحالنا . وانطلقنا فى طريقنا ، بيد اننا لم نلبث أن شعرنا بثلة من الفرسان مقبلة فى آثارنا .. فاذا بالهلع يبين على أولئك الأوغاد الأندلسيين الذين لم يكن لهم من حديث سوى القتل والاجرام .. فلم يحتفظ برباطة جأشه بينهم غير دانكاير وجارسيا وكارمن وشاب وسيم ظريف من « اسيجا » يدعى رعيندادو . اما الباقون فسرعان ماتخلوا عن بغالهم

والقوا بأنفسهم بين الصخور الوعرة التي لاتستطيع الجياد ان تبلغها ..

ولم يك أمامنا متسع من الوقت لانقاذ دوابنا فرحنا نرفع عنها أثمن ما كانت تحمل من متاع .. والقيناه على عواتقنا ثم رحنا ننشد النجاة بين أوعر الطرق واشق الصخور . والقينا الأمتعة وتركناها تتدحرج على السفح الآخر من الجبل ومضينا نهبط في أثرها .. بينما كان الجنود يمطروننا بطلقاتهم ..

وللمرة الأولى سمعت الرصاصات تئز وتمرق كالسهام على مقربة مني ولكنني تجلدت فلم احفل بها . فليس اسهل على المرء من أن يتحدى الموت حين يرى نفسه هدف نظرات امرأة يغرم بها .

ونجونا جميعا ماعدا ريمندادو الذي أصابته رصاصة في عجزه .. فألقيت حملي وحاولت ان أرفعه على كتفي ولكن جارسيا صاح بي :

— ماذا تفيد أيها الأحمق من عاجز يحتضر ! .. الق به وانج بالسلع التي تحملها

وصرخت كارمن : « الق به ! » .. واضطرني التعب ان أطرحه برهة في ظل صخرة فإذا بالأعور يتقدم فيفرغ رصاصات غدارته في رأس المسكين .. ثم يقول وهو يتأمل الوجه الذي شوهته الرصاصات شر تشويه : « لعمري لن يستطيع أمهر الناس ان يتعرف على شخصيته بعد اليوم » ..

هكذا كانت الحياة التي انغمست فيها ياسنيور ! .

فلما كان المساء ، وجدنا أنفسنا في أحد الأحراش ، وقد هرأ التعب اجسامنا ، ونال الجوع منا ولسنا نملك شيئا من الزاد ، وفجعنا في دوابنا .

فماذا تتوقع من جارسيا الوغد الزنيم ؟ .

انه لم يلبث ان اخرج من جيبه حزمة من ورق اللعب ، وطفق يلعب مع دانكاير على ضوء نار اشعلاها .

بينما استلقيت على ظهري احدق في النجوم التي كانت ترصع صفحة السماء وافكر في ريمندادو واتمنى لو انني كنت محله ولقيت مصيره .

ومالبثت كارمن ان تسللت حتى اقتربت مني ، فراحت من حين الى آخر تداعب « صاجاتها » مترنمة ببعض الالحان ، او تزداد اقترابا مني وتتظاهر بانها تسر الى كلمة ثم تقبلني على الرغم مني . وهتفت بها :

— لعمري ، انك لشيطانة ..

فأجابتني في هدوء :

— اصبت ! .

وبعد ان استجمت ابضع ساعات فارقتنا راحلة الى (جوسن) .

فلما كان الصباح التالي ، أرسلت الينا بعض الخبز في مكاننا الذي لازمناه بقية اليوم ، حتى اذا اقبل الليل ، تسللنا صوب (جوسن) ، وتربصنا نرتقب انباء من كارمن ، ولكننا لم نتلق أي نبأ ..

واذ انبثق ضوء النهار ، لمحنا رجلا يقود بغلا امتطته سيدة أنيقة فخمة الثياب ، تحمل مظلة

وتتبعها فتاة صغيرة يبدو عليها أنها خادم لها .

وقال لنا جارسيا :

— هناك بغلان وامرأتان يبدو ان المديسين الطيبين قد ارسلوها الينا ، ومع انني كنت افضل ان يرسلوا الينا أربعة بغال ، الا انني لا أرى بأسا على كل حال . فدعوني أتولى هذه المهمة . .

وتناول غدارته وانحدر نحو الطريق مستترا وراء الأحراش الكثة . فتبعناه عن كثب ، حتى اذا غدونا جميعا على بعد مناسب من القادمين ، برزنا لهم صائحين في الرجل ان يوقف بغليه . .

وبدلا من ان تجزع المرأة لرؤيتنا ولظهورنا الذي كان يكفي لحملها على الاغماء . انفجرت في عاصفة من الضحك وهي تصرخ : « آه ! . . يالحمقى ! . . لقد خدعوا بمظهرى فحسبوني سيدة من علية القوم حقا ! . »

وتبينا انها كارمن ، ولكنها كانت قد اتقنت التنكر حتى انني لم اكن لأعرفها لو انها تكلمت بلغة غير لغة النور . وقفزت عن بغلها ، ثم وقفت تتحدث الى دانكاير وجارسيا برهة في صوت منخفض .

وما لبثت ان تحولت الي قائلة :

— لسوف نلتقي ثانية قبل ان تشنق ايها الجندي .. انني ذاهبة الى جبل طارق ، ولن تلبث أن تتلقى اخباري عما قريب ..

وغادرتنا بعد ان ارشدتنا الى مكان نلجأ اليه لمدة أيام .

كانت هذه الفتاة هي رمز الخلاص ومفتاح الطريق أمام عصبتنا .

وان هو الا قليل حتى تلقينا منها بعض المال ، ومعلومات كانت لدينا أثمن من المال فقد ارسلت الينا تخطرنا بان سيدين انجليزيين سيمران بمكمننا في يوم معين يحملان من المال قدرا وفيرا . .

ورغب جارسيا حين رحنا نتشاور في الخطة التي نتبعها ازاء الفريستين . . في ان نقتلهما . . ولكنني ودانكاير عارضناه .. فلم نجردهما — حين وقعا في أيدينا — الا من نقودهما وساعتيهما وقيصيهما اللذين كنا في حاجة ماسة اليهما .

ان المرء ينساق مع الشر حتى يغدو وغدا شقيا دون ان يحس او يعي ياسنيور .

فلقد يحدث ان تهيم بفتاة حسناء ، فلا تلبث ان تشتجر من أجلها . فيلازمك سوء الحظ وتقتل غريمك فتضطر الى ان تعيش حياتك في الجبال .. وتنقلب مهربا .. ثم لاتلبث ان تتحول سارقا أو قاطع طريق دون ان تشعر أو تجد فرصة تفكر فيها فيما انت فاعل .

وحدسنا انه لم يعد من المستحسن لنا ان نمكث على مقربة من جبل طارق بعد اغارتنا على الانجليزيين .. فالتجأنا الى (سيرا دى روندا) ولذنا بمخبأ هناك .

لقد سبق ان حدثتني عن جوزيه ماريا . . واني لأذكر بهذه المناسبة انني تعرفت به

هناك . .

كان من عادته ان ينصحب عشيقته فى مغامراته . . وكانت فتاة جميلة . . عاقلة متواضعة . . طيبة الخلق . . لاتبدر منها كلمة نابية . . كما أنها كانت تتفانى فى الاخلاص له . . ولكنه كان يجزيها عن وفائها شرا . . فيجعل حياتها شقاء دائما . . وكان يهجرها لينعم غيرها من الغانيات . . ويفنى فى اذلالها . . ولكنه كان لايلبث فى بعض الاحايين ان يبدى نحوها غيرة مشتعلة هوجاء . .

ولقد حدث فى احدى سورات غضبه ان طعنها بسكينه فلم تزدد الاحبا له . . وراحت تزهى فخورا بالجرح الذى أحدثه فى ذراعها . . فتريه لكل مخلوق وكأنه أجمل تذكار على وجه الارض.

وفوق كل هذا كان جوزيه ماريا من أسوأ الزملاء رفقا ومعشرا . . فقد حدث فى إحدى المغامرات التى اشتركنا فيها أن سعى الى الاستئثار بكل الغنم الذى عدنا به من المغامرة تاركا لنا المتاعب والنضال

ولكننى افضل أن أعود الى سياق حديثنا الأول

لم نسمع عن كارمن مذ فارقتنا فى ذاك اليوم راحلة الى جبل طارق . فما لبث دانكاير أن قال :

— « لابد أن يذهب أحدنا الى جبل طارق ليتسقط أنباءها . فلعلها قد دبرت الخطة لعمل ما ، فى تلك الاثناء . . وكم كنت أرغب فى أن أذهب بنفسى ، ولكننى معروف فى جبل طارق وأخشى أن يفتضح أمرى هناك »

فأردف الأعور قائلا :

— « وأنا كذلك يعرفنى القوم هناك ، فكثيرا ما أوقعت ذوى البزات الحمراء — الانجليز — فى شراكى ومصائدى . . ولما كنت أعور ، وليست لى سوى عين واحدة ، فان من العسير على أن أتنكر فى غير هيئتى » . . فقلت بدورى وقد ابتهجت لمجرد التفكير فى أننى سأرى كارمن : « اذن يجب أن أذهب . . فهلما بنا ندبر ماينبغى عمله ! » . . فقالا : « لك الخيار فى أن تذهب بحرا ، أو عن طريق « سانت روك » ، فهذا متروك لرغبتك . . فاذا بلغت جبل طارق فسل فى المرفأ عن مسكن امرأة تبيع الشيكولاته ، تدعى رولونا ، حتى اذا عثرت عليها ، أنبأتك بكل مايحدث » . .

واتفقنا على أن نرحل جميعا الى « سيرادى جوسن » ، فأفارق زميلى هناك ، وأتابع سيرى الى جبل طارق ، متخفيا فى زى بائع فاكهة . فاذا بلغت روندا ، فسأجد جوازا فى انتظارى ، يعده مقدما شخص يعمل لحسابنا هناك . وأعطانى الزميلان — ونحن فى جوسن — حمارا حملته برتقالا ثم شرعت فى رحلتى وحيدا . .

وتبينت اذ وصلت الى جبل طارق ، ان رولونا معروفة لدى الجميع ، ولكنها كانت قد توفيت ، أو ذهبت الى الشيطان ، قبل وصولى ، فخيل الى ان اختفاءها هو السر فى انقطاع الاتصال بيننا وبين

كارمن .. ولم ألبث أن أودعت حارى احدى الحظائر ، وحملت البرتقال فرحت أجوب به ارجاء المدينة متظاهرا بانني أبيعه ، وان كنت فى الحق أبحث عن أى شخص من المعارف ..

ولعلك تعرف أن جبل طارق تضم اناسا من أجناس كثيرة .. انها نموذج حديث لبرج بابل ، فلا يكاد المرء يسير عشر خطوات فى الطريق دون أن يسمع فى كل خطوة حديثا بلسان غريب والتقيت هناك بكثير من الفجر ، ولكنني لم أجرؤ على الوثوق بهم . . ولقد تعرفوا إلى وتعرفت اليهم ، وأدرك كل منا أننا فى الشقوة والاجرام سواء ، ولكن أهم شىء كنا نركن اليه هو التأكد مما اذا كنا نتبع عصبة واحدة .. وهذا مالم يتح لى التحقق منه .

وبعد يومين قضيتهما فى التجوال دون جدوى ، ودون أن أعرف شيئا عن رولوتا أو كارمن فكرت فى أن أكر عائدا الى زملائى . وفيما كنت أسير فى احد الطرقات والشمس تجنح للمغيب، سمعت صوت امرأة يناديني من احدى النوافذ : « يابائع البرتقال ! » فتطلعت الى عل ، فرأيت كارمن فى احدى الشرفات وقد انحنت على سياجها تطل على ، والى جوارها ضابط فى البزة الرسمية الحمراء التى يرتديها الضباط الانجليز هناك ، وعلى كتفيه اشارات الذهبية الدالة على رتبته،وبدا عليه طابع الرفاهية والنعمة .. أما هى ، فكانت فى أفخم ثياب .. كان على كتفيها وشاح تحلى وفى شعرها مشط ذهبى ، وقد ارتدت ثوبا حريريا غاليا . . وكانت حيية كعهدها مرحة ضاحكة ..

وأمرنى الانجليزى فى كلمات اسبانية ركيكة مهشمة أن أصعد إلى المسكن لأن السيدة تود أن أبيعها بعض البرتقال .. وأردفت كارمن فى لغة أهل الباسك : « تعال ، ولا تبد دهشة لأى شىء تراه» والواقع أنني ماعدت أرى فى أعمالها مايستثير الدهشة .. ولا أدرى أشعرت اذ ذاك بالفرح او وجمتها ، أم بالاسى . .

وتلقانى عند باب المسكن خادم انجليزى أنيق ، قادنى إلى حجرة فاخرة الأثاث فبادرتنى كارمن بلسان الباسك : « تذكر انك لاتفقه كلمة من اللغة الاسبانية ، لا ولست تعرفنى قط » . ثم التفتت إلى الانجليزى قائلة : « أما قلت لك حين رأيته لأول وهلة أنه من أهل الباسك ؟ .. ستسمع الآن رطانة عجيبة ماأظنك قد سمعتها من قبل .. الا ما أغبى منظره ! .. ألا تراه يبدو وسط هذه الرياش ، كقطة وقعت فى صوان فاذهلها مايحوطها فيه ؟ » .. فقلت لها بلسان قوى :

— وأنت ، ألا ترين أنك تشبهين الزانيــة الفاجرة المتهتكة ، ان النفس لتحدثنى بأن أشوه وجهك أمام عشيقك هذا ؟ » . فصاحت : «عشيق !؟ . أهذا ما اكتشفته بنفسك ؟. أو تغار من هــذا الغبى ! . لعمرى ، انك لأحمق مما كنت قبل لياليا التى قضيناها فى شارع كانديليجو . ألاترى أيهــا الأحمق اننى أعد العــدة لاحدى المغامرات ، واننى أنسج أروع وأقوى الحبل ؟ . ان هذا البيت ملك لى ، ولن تلبث جنيهات هذا الانجليزى أن تغدو لى . اننى أقوده بأشارة من طرف بنانى ، وسرعان ماسأوجهه الى حيث لارجعة ! » فأجبتها :

— اذا كنت تديرين المغامرة بهذا الأسلوب ،فسأدبر خطتى حتى لايكون لك بعد اليوم فى تدبير

الغامرات شلم» وأخذتها قولي فصاحت :

— «أهكذا ؟ . وهل أنت زوجي حتى تأمرني ؟ . ان الأعور راض بأعمالي . أي شأن لك منا ؟ ألا تقنع بأن تكون الرجل الوحيد الذي يجوز له أن يعتبر نفسه بحق عشيق ؟» . وسألها الانجليزي اذ ذاك عما أقول ، فاجابته : «انه يقول ان العطش يلهب حلقه ، ويصبو الى جرعة من الشراب» .

والقت بنفسها على احدى الأرائك مغرقة في ضحكها المرح .

ان لهذه الفتاة ضحكة باسنيور ، تذهب بعقول الرجال ، وتحمل كل فرد على أن يضحك معها. وهكذا شاطرها الانجليزي الضحك كالأبله ، وأمر باحضار شيء من الشراب لي . . وبينما كنت أحتسي الكأس ، قالت كارمن : «أترى ذاك الخاتم الذي يزين أصبعه ؟.ساجيك إياه اذا أحببت» فاجبتها : «بل انني لأنزل راضيا عن احدى أصابعي في سبيل أن أرى السيد الفاضل بين الجبال وفي يد كل منا ماكيلا» . و «ما كيلا» في لغة الباسك اسم للسيف .. وكأنما استرعت الكلمة فضول الضابط فسألها عما أعني بها . فاجابته وهي لاتكف عن الضحك : «ما كيلا يعني برتقالة ألا تراه اسما غريبا للبرتقال ! . إنه يعرب لي عن رجائه في أن تلتهم إحدى برتقالاته» . . فقال الانجليزي : «أحقا ! — إذن أحضر بعض الماكيلا غدا»

وأقبل الخادم في تلك الأثناء يدعوهما الى مائدة العشاء ، فنهض الانجليزي ، وأعطاني قرشا اسبانيا . ثم قدم لكارمن ذراعه تستند اليها ، وكأنها لاتستطيع أن تسير وحدها .

فقالت وهي تواصل الضحك : لاأستطيع أن أدعوك للعشاء يافتاي ، ولكن تعال غدا اذا سمعت صوت الطبول تدعو الجنود للعرض اليومي ، واحمل بعض البرتقال لتدرأ الشبهات .. وستجدني في انتظارك في حجرة خير من حجرة شارع كانديليجو ، وسترى أنني ما زلت حبيبتك كارمنسيتا .. كما أنني سأحدثك اذذاك عما اتخذت من تدابير .

ولم أجبها ، بل انصرفت لفوري حتى اذا بلغت الطريق ، سمعت الانجليزي يناديني ويصيح في أثري : «أحضر بعض الماكيلا غدا ..» بينما انبعثت ضحكات كارمن عالية ..

وخرجت لا أدري كيف كنت .. ولم أكد أعرف للنوم طعما في تلك الليلة حتى اذا اسفر الصباح كان سخطي قد بلغ أقصى درجات احتدامه ضد تلك الخادعة اللعوب . . فعزمت أمري وعقدت نيتي على أن أغادر جبل طارق دون أن أقابلها .. بيد انني لم أكد أسمع أولى دقات الطبول ، حتى سرى عني ، وتلاشى كل عزم عقدته على هجرها ، فتناولت سلة البرتقال وهرعت الى كارمن .

ورأيت عينيها الواسعتين تتطلعان الى الطريق خلال ثقوب مصراعي النافذة الخشبية ترقبان مقدمي .. ونادتني الخادم الأبنوس اليها في الحال ، فأرسلته في مهمة تستدعي غيابه عن الدار ، وما كادت تخلو الى حتى استغرقت في ضحكاتها الساحرة ، وألقت بنفسها في أحضاني . . ولم أرها قط في مثل الجمال الذي تبدت فيه يومذاك .. كانت في أغلى ثياب ، وقد تعطرت وتزينت ، وأحاطت بها رياش فخمة ، وانتشرت على نوافذها ستائر حريرية مطرزة . . بينما كنت في

ملابسي الحقيرة ..

وهتفت كارمن : بودي لو حطمت كل شيء بتصديق ، وأوقدت في بيت نارا يأتي ضرامها على كل مافيه ، ثم طرت معك الى الجبال

وراحت تدللي وتناجيني وترسل ضحكاتها العذبة الرنين .. وترقص ، وتمزق ثيابها ، وتقفز في الهواء ، وتأتي من الحركات مالا يأتيه فرد مموه .. حتى اذا عادت الى رشدها ثانية تحولت في جد قائلة : اسمع لنتحدث الآن في العمل .. سأحمله على أن يرافقني الى روندا ، حيث زعمت أن لي أختا راهبة ، وسنمر بمكان سأدلك عليه باسمه .. فعليك أن تباغته وتسلبه كل شيء .. وخير أن تدق رقبته دقا .. وصمتت لحظة ثم استطردت وهي تبتسم تلك الابتسامة الشيطانية التي تبدى أحيانا على وجهها فتبعث الرهبة في أقوى القلوب : ولكن .. أتعرف ماينبغي أن تفعل؟ أرسل الأعور في المقدمة وتأخر عنه قليلا .. ان هذا الانجليزى ذكي حاذق يجيد استعمال مسدسه .. أتفهم ماأعني .. ؟

وبترت حديثها مرسلة فيضا من ضحكها .. فاقشعر بدني ، اذ أدركت خطتها وقلت :

— لا .. حقا انى أكره جارسيا ، ولكنه زميلي . ولقد يأتي يوم استطيع فيه ان اتخلص منه ، ولكننا سنسوى حسابنا اذ ذاك وفقا لتقاليد قومي . . لقد اقتضت الظروف انا كون نوريا ، ولكنني سأظل قبل كل شيء نافاريا أصيلا . . فصاحت :

— انك احمق مغفل .. انك كالقزم الذى يخال نفسه عملاقا لأنه يستطيع ان يرسل بصقته الى مسافة بعيدة . انك لاتحبني ، فاغرب عني . .

ولكنني لم استطع الانصراف ، بل تريثت لأنبئها بانني عائد الى زميلي ، وانا سننتظر الانجليزى ووعدتني من ناحيتها بان لاتتمادى معه حتى يحين موعد الرحيل الى روندا .

وبقيت في جبل طارق يومين آخرين كانت تجيئني خلالهما على ان تأتي الى متنكرة فتلاقي حيث أقيم .

ورحلت ، وفي نفسي فكرة اعتزمت تنفيذها . . وعدت الى زميلي وقد عرفت من كارمن كل شيء عن المكان الذى ستمر به مع الانجليزى .. وعن الموعد الذى ارتأته لمرورهما .. فوجدت دانكاير وجارسيا في انتظاري .. فقضينا ليلتنا في غابة .. بجوار نار اوقدناها .. فلما فرغنا من العشاء .. سألت جارسيا ان يلاعبني الورق .. فقبل حتى اذا كان الدور الثاني من اللعب .. اتهمته بأنه يغشني . . فضحك مني .. فالقيت بالورق في وجهه . . وهم بان يتناول غدارته .. ولكنني وضعت قدمي عليها وقلت له : « يقولون انك أمهر أهل (ملقا) في المبارزة بالخنجر . . فهل نازلتني ؟ » .

وحاول دانكاير ان يتداخل فيفصل بيننا .. ولكنني كلت لجارسيا لكمتين أو ثلاث . . فذكا أوار غضبه . . واستل خنجره . . فاستللت خنجري . . ودعونا دانكاير ليفسح لنا مجالا ويشهد المبارزة . . فلما رأى ان لاحيلة له في فض النزاع . . تنحى ووقف يرقبنا . . وكان

جارسيا قد تحفـز كالقط اذا هم بالوثوب على فأر .. وأمسك قبعته فى يده اليسرى كدرع يتقى به طعناتى ، وأشهر خنجره على عادة أهل الاندلس ..

أما أنا فاتبعت طريقة النافاريين .. فوقفت أمامه رافعا ذراعى اليسرى .. مقدما ساقى اليسرى ممسكا بخنجرى على طول ابهام يدى اليمنى .. وشعرت بقوة لا عهد لى بها فكأننى جبار شديد الفتك ..

وألقى جارسيا بنفسه على فى حركة سريعة مباغتة .. ولكننى درت فى الهواء مرتكزاً على قدمى اليسرى ، فحدت عن سبيله وعاجلته بطعنة فى حلقه فناب خنجرى حتى مست قبضتى وأنا ممسك به ذقن الشقى .. وجذبت النصل فى عنف حتى انكسر ، ولكن بعد أن أحدث الجرح الذى رميت اليه .. فالبثت الدماء المتدفقة فى قوة أن دفعت هذا النصل المكسور وانبثقت دافقة . وسقط جارسيا على الأرض منكفئا على وجهه وقد فارق الحياة ..

وصاح دانكاير :

— ويحك .. ماذا فعلت ! ؟

فأجبته :

— لم يك فى وسعنا أن نعيش معا .. اننى أحب كارمن وأريد أن أغدو رجلها الأوحد . ثم أن جارسيا كان وغدا زنيما ، وأنا لم أنس بعد مافعله بريمندادو المسكين .. لم يبق سواك واياى من رجال العصبة ، وأعتقد أننا من ذوى القلوب المخلصة ، فهل تعاهدنى أن نكون أصدقاء فى الحياة والموت ؟

ولم يتردد دانكاير ، بل بسط يده لى .. ثم هتف فى لهجة ابن الخمسين عاما ـ وقد كان فى تلك السن فعلا ـ :

— لعن الله الحب ومصائبه ! .. لو أنك سألته أن يتخلى لك عن كارمن ، لباعك إياها لقاء قرش واحد .. ولكننا غدونا اثنين فقط ، فكيف ترانا فاعلين فى مغامرة الغد ؟

فقلت له :

— دع لى أمر تدبيرها ، فلم أعد الآن أحفل بالدنيا بأسرها .

وواريناجثة جارسيا التراب ، ثم نقلنا خيمتنا على مائتى خطوة منها .

فلما كان اليوم التالى ، أقبلت كارمن مع رجلها الانجليزى ، يصحبهما تابعان وخادم .. فقلت لدانكاير حين بدوا لأعيننا :

— سأتولى أنا أمر الانجليزى . فعليك أن ترهب الآخرين ، ولا تخش سوءا فهم لا يحملون سلاحا ..

ولكن الانجليزى كان جريئا ثابت الجنان ، فشهر مسدسه وصوبه نحوى ، ولولم تدفع كارمن ذراعه لأصاب منى مقتلا .. ولن أصف لك مالقيت فى المغامرة وماأبديت من أعمال ، ولكننى أقول لك باختصار إننى غزوت قلب كارمن فى ذلك اليوم مرة أخرى .. فلما فرغنا من المغامرة ، كانت أولى كلماتى أن أزجيت اليها نبأ ترملها ، فانصتت فى صمت ، حتى اذا انتهيت من كلامى قالت :

— إنك أحق ولا ريب . كان فى وسع جارسيا أن يقتلك ، فما كانت أساليبك الناقرية فى المبارزة لتجدى معه ، ولقد أودى بحياة كثيرين أمهر منك وأحذق . ولكن أجله قد حان ولن يلبث أن يحين أجلك أنت يوما ! .

فقلت :

— وأجلك أنت أيضا ، اذا لم تصبحى زوجتى الوفية المخلصة .

قالت : من الخير أن تحين منيتى . كثيرا مارأيت وأنا أقرأ طالعنا فى قدح القهوة أننا سنموت معا . واها لك ! . من زرع حصد !

وراحت تداعب « صاجاتها » كعادتها كلما أرادت أن تتخلص من بعض الأفكار السوداء التى تضيق بها .

ان المرء ليتناسى نفسه اذا ماتكلم عن شؤونه وشجونه باسنيور ، وما أرانى الا قد ضايقتك بكل هذا الاسهاب ، ولكننى لن ألبث أن أفرغ من القصة سريعا .

ودامت حياتنا معا طويلا . وعملت مع دانكاير على ضم زملاء جدد أكثر اخلاصا وولاء من القدماء ، ومن ثم انغمسنا فى التهريب واعترف أننا كنا فى بعض الاحيان لانتورع عن السطو على المسافرين فى انبرارى وعلى مسافات شاسعة من المدن ، ولكننا لم نكن نفعل ذلك الا فى الاوقات التى كان الضنك والعسر يبلغان فيها أقصى غاياتهما ، حتى لاتعود أمامنا سبل للابقاء على حياتنا ونفوسنا سوى قطع الطرق . .

وما كنا نسيء معاملة ضحايانا — كما يفعل قطاع الطرق — بل كنا نقنع بتجريدهم من المال دون أن نعمل على ايذائهم .

وانقضت شهور عديدة وأنا أعيش فى غبطة وهناءة مع كارمن التى ظلت على عهدها وجهودها فى ارشادنا وتهيئة المغامرات الناجحة لنا

وكانت تقيم فى (ملقا) أحيانا ، وفى قرطبة أحيانا أخرى ، وفى غرناطة فى بعض الاوقات ولكنها كانت لاتلبث أن تهجر كل المدن ، اذا مادعوتها بكلمة واحدة ، فتوافينى فى أحد النزل المنعزلة البعيدة ، أو فى خيمة بين الجبال ، فنقضى معا لحظات سعيدة نرشف خلالها من رحيق الحب ماينسينا كل شيء فى الحياة . ولم يحدث أن تأخرت عن الاسراع الى اذا مادعوتها ، إلا مرة واحدة .

كانت إذ ذاك فى (ملقا) ، حيث عرفت أنها اتخذت شباكها على تاجر واسع الثراء ، لعلها حاولت معه أن تعود الى حياة الترف التى كانت تحياها فى جبل طارق على حساب صيدها ! .

وعلى الرغم مما بذله دانكاير محاولا اثنائى وارجاعى عن عزمى ، فانى صممت على الرحيل الى (ملقا) وشرعت فى ذلك فعلا فى وضح النهار .. وسرعان ماوصلت حتى بحثت عنها ، فحملتها الى خارج المدينة فى الحال .

وكان لقاء حادا قاسيا ، لم تمالك خلاله أن قالت :

— أتعرف اننى لم أعد أحبك مذ أصبحت زوجى كما طالما أحببتك وانت عشيق ! اننى لاأقبل الخضوع

لأحد . كل ماأرجوه فى دنيــاى أن أعيش حرة ، وأن أفعل كل مايروق لى فعله فلا تبالغ فى بسط سيطرتك على . فأنى لن أعدم — اذا أغضبتنى — رفيقا يفعل بك مافعلت بالأعور

ولــكن خصامنا لم يدم طويلا ، وسرعان ما أصبح دنكاير بيننا .

وما لبث النحس أن لازمنا بعد ذلك ، ففاجأنا الجنود ذات يوم ، وأقبلوا على مطاردتنا فى شدة فقتل دانــكاير واثنان آخران من رفاقنا ، بينما اعتقل زميلان آخران . وأصبت بجرح بالغ ، ولولا جوادى ، لوقعت فى أيدى الجنود .

ولجأت الى غابة ، لايصحبنى غير الزميــل الوحيد الذى بقى من عصبتنا . وقد أضنانى التعب ، وأثارت الرصاصة التى أحدثت الجرح ، أقسى الآلام

وما أن هممت بالترجــل عن جوادى حتى أغمى على ، وخيل الى أننى لن ألبث أن أموت ، كما يموت الأرنب فى الادغال . وحملنى زميــلى الى كهف معروف لنا ، ثم انطلق يبحث عن كارمن التى كانت اذ ذاك فى غرناطة — فجاءت لتوها معه ، ولم تغادرنى لحظة واحدة طيلة الايام الخمســة عشر التالية . بل ولم تغمض لها عين ، أو تعرف معنى للراحة ، وانمــا أقبلت تمرضنى وتعنى بى فى مهارة ورعاية لم يلقهما رجل قبلى من امرأة أحبته وهامت به .

وما ان استطعت ان استوى على ساق ، حتى حملتنى الى غرناطة واملاك لاندرى أن فى وســع النور أن يعثروا دائما على مخابىء يكمنون فيها أينما حلوا .

ومكثت ســتة اسابيع فى بيت لايبعد عن بيت القاضى الذى يبحث عنى ليقتص لامــمالة منى . باكثر من بابين اثنــين . وطالما رأيته وانا اطل خــلال ثقوب النوافذ اثناء مروره بالدار التى كنت فيها .

وما لبثت ان استعدت قواى . ولــكننى كنت خلال الايام التى قضيتها طريح الفراش ، قد استعرضت حيــاتى واعتزمت ان أسلك نهجا جديدا . وفعلا صارحت كارمن برغبتى فى ان نهجر اسبانيا الى العالم الجديد ، فنحاول ان نبدأ حياة شريفة هناك . ولــكنها ضحكت وأجابت :

— اننا لم نخلق للحياة الهادئة التى تنتظرها هناك . ان غايتنا دائما ان نعيش على حساب البيض والقبائل غــير النورية .. دع عنك هذا اللون السخيف من التفكير . فقد دبرت مع ناتان عميلــا فى جبل طارق مغامرة جديدة ، فان لديه كميات من البضائع القطنية يريد ان يهربهــا عبر الحدود الاسبانية . وقد عرف انك على قيد الحياة ، ومن ثم فهو يعتمد عليك فى هذه المهمــة فماذا تراه يقول اذا تخليت عنــه ؟.

واستسلمت للاغراء .. وعاودت حياة الشرور . .

ولــكن ، مهلا . فقد فاتنى ان اذكر لك شيئا .. فيم كنت مختفيا فى غرناطة ، غشيت كارمن عدة حفلات عامة لمصارعة الثيران ، وكانت كلما عادت من احداها ، تسهب فى الحديث عن بطل حديث من مصارعى الثيران يدعى لوكاس .

ولاحظت أنها تسرف فى حديثها عنه ، حديث من يعرفه ويهتم بأمره ، حتى لقد كانت تعرف اسم جواده وكانت تذكر كم دفع ثمنا لسترته المزركشة .. ومع ذلك ، فاننى لم آبه للامر فى البداية ، الى

أن جاءني جوانيتو — الزميل الباقي من العصابة — بعد ذلك بعدة أيام فأفضى الى بأنه رأى كارمن ولوكاس في بيت احد التجار الذين تحوم الريب حول سمعتهم ..

فكان هذا النبأ نذيرا بعث في نفسي الخوف فرحت أسائل كارمن كيف ولماذا عرفت ذلك المصارع؟

ولكنها اجابت قائلة :

— انه شاب قد يصلح لأن يكون صيدا لنا .. لقد ربح ١٢٠٠ ريال في حلقة الثيران،وأرى أن علينا أن نعمل لاحد أمرين .. اما أن نسلبه ماله ، واما أن نغريه على الانضمام لعصبتنا فهو شاب جسور ،وأنت في حاجة الى أعوان بعد أن مات معظم أفراد العصبة القدماء ..

فصرخت في وجهها :

— لست أريده ولا أريد ماله ، واني لاحظر عليك أن تخاطبيه مرة أخرى أو تتصلي به ..

فاجابتني قائلة :

— اني أحذرك من هذا السلوك . فلقد تعودت أن أفعل ما يحظر على فعله .

ولحسن الحظ ، غادر المصارع المدينة راحلا الى (ملقا) وانصرفت أنا الى تهريب البضائع القطنية لحساب ناتان .. وكانت المغامرة شاقة مضنية ، بذلت فيها — كذلك كارمن — جهودا مضنية وتناسيت أمر ذلك المصارع . واظن أن كارمن نسيته كذلك ولو خلال تلك الفترة على الأقل .

كان ذلك حوالي الوقت الذى قابلتك فيه أول مرة ياسنيور ، على مقربة من مونتيلا ، ثم التقيت بك ثانية في قرطبة .. ولن أقص عليك ماحدث في لقائنا الثاني ، وما اكتنفه من ظروف واحداث فقد تعرف عنه أكثر مما أعرف ..

ففي هذه المرة سلبتك كارمن ساعتك ، وكانت ترى أيضا الى أن تجردك من نقودك . ولعل أهم ما كانت تطمع في سرقته هو ذلك الخاتم الذي أراه الآن حول أصبعك ، فقد زعمت انه خاتم سحري جدير بأن يكون في حوزة امرأة مثلها تعرف كيف تستغله وتفيد من ميزته السحرية . وقد أثار هذا نزاعا بيننا ، اذ عارضتها فيما كانت تطمع فيه ، رغبة في أن أنتهز هذه الفرصة التي ساقتها لي الاقدار ، فأرد لك بعض الجميل الذى طوقت به عنقي في لقائنا الأول . .

أو تذكر ماأبديت من كرم نحوى وأنت تعرف — كما تبينت مما حدث بعد ذلك — امرى وحقيقة شخصيتي ؟ ..

ثم اكنت تظنني أنسى كيف أنقذتني ليلتذاك من الوقوع في قبضة الجنود الذى وشى بى اليهم دليلك ؟ .. لا ياسنيور ، فان النافارى نبيل — ولوكان شقيا قاطع طريق — فهو لاينسى الاحسان ماعاش .

ولكنني لن أطيل الحديث عن قصة أنت تعرفها .. فقد أثارت معارضتي نزاعا بيني وبين كارمن

— كما ذكرت من قبل — فلطمتها فى سورة الغضب والانفعال ، فاذا بالدماء تنحسر عن وجهها .
فتكسو تقاسيمه شحوب بالغ ، ثم اذا بها تبكى .. وكانت المرة الأولى التى رأيتها تبكى فيها ، فتأثرت لذلك من كل قلبى ، وانقلبت أسألها أن تنفرلى نزوتى وتصفح عنى ، ولكنها لاذت بالوجوم والصمت والنفور منى طيلة اليوم التالى .. حتى اذا آن لى آن أرحل الى مونتيلا .. أبت أن تقبلنى ..

ومكثت مهموما مثقل القلب طيلة الأيام الثلاثة التى اعقبت رحيلى

فلما كان اليوم الرابع اقبلت ضاحكة السن .. مفعمة بالفرح والمرح .. وتناسينا كل شىء وعدنا الى حياتنا السابقة .. لا .. بل عشنا طيلة اليومين التاليين وكأننا عاشقان جديدان طاب لهما الغرام وصفا لهما الجو .. وتلاشى كل مايعكر سماء حبهما .. وأغمض القدر بأصابعه السحرية عيون الرقباء عنهما

وعند ما أوشكنا أن نفترق قالت كارمن وهى تودعنى :

— سيقام فى قرطبة مهرجان كبير .. وقد اعتزمت الرحيل الى المدينة لأشهده .. ولانعرف من رواده على من يغادر المدينة فى نهايته حاملا مالا .. فانبئك بخبره ..

وتركتها .. ترحل حتى اذا خلوت الى نفسى .. فكرت فى ذلك المهرجان الكبير .. وعجبت لما طرأ على كارمن من تطور عظيم جعلها فى مثل ما كانت من مرح واغتباط وفسرت ذلك بأنها قد آبت الى نفسها .. فادركت ذنبها وتابت عنه .. ومن ثم كانت البادئة بالعودة .. الساعية الى الصلح وذلك سر الغبطة والمرح اللذين أظهرتهما خلال اليومين الاخيرين

ولكن الأقدار مالبثت أن ساقت الى فلاحا التقى بى .. فأخبرنى فى سياق الحديث ان ثمة حفلة كبرى ستقام لمصارعة الثيران فى قرطبة .. فاذا بى أشعر بالدم يغلى فى عروقى .. وبادرت بالرحيل الى المدينة وأنا ثائر منفعل كالمجنون ..

وشهدت الحفلة ، فلم البث ان عثرت عين دلنى على لوكاس بين المصارعين .. ولمحت كارمن تجلس فى مقعد قريب من الحاجز الذى يفصل بين النظارة وحلبة الصراع .

وما ان تأملتها ، حتى قرأت فى أساريرها ما اكد الشكوك التى تنتابنى .. ثم أرسلت الى الظروف ، مادمت هذا التأكيد تدعيما قاطعا ، وقلب هذه الشكوك حقائق واقعة ملموسة لاسبيل الى انكارها . فقد قام لوكاس حين شرع يستفز أول ثور سيق الى الحلبة لينازله ، بحركة لايأتيها الاكل عاشق يهم بارضاء عشيقته وباظهارها على مدى حبه لها .. وتقديره لما يربطهما من غرام ..

انك ولاشك قد شاهدت بعض حفلات مصارعة الثيران ، اثناء تجوالك فى الاندلس . فلعلك لاحظت ان كل ثور يساق الى الحلبة ، تعقد بين قرنيه بضعة أشرطة ملونة تدل على سلالته وعلى المرعى الذى ربى فيه ..

وهذه الاشرطة تثبت الى جلد الثور بسن من الصلب يخترق طبقة الجلد .

وقد قضت التقاليد ان خير تحية يقدمها المصارع لخليلته اثباتا لما يكنه لها من حب ، هي في ان ينزع هذه الاشرطة من مكانها ـ وهي عملية شاقة خطرة قد تودى بحياته اذا تمكن الثور منه ـ فيقدمها الى خليلته على مرأى من الجماهير التى تشهد الحفلة .

وكنت اتوقع ان يفعل لوكاس ذلك . . وقد فعله ، اذ انتزع الاشرطة من جلد الثور بمهارة وحذق ، وحملها الى حيث كانت تجلس كارمن ، فقدمها اليها،فما كان منها الا ان اسرعت فرشقتها بنفس السن الذى كان يخترق جلد الثور ـ في شعرها .

وكأنما شاءت العناية ان ينتقم الثور لكرامتى المهان ، وقلبى المطعون فهجم بغتة على لوكاس وقلبه وجواده على الارض ، فهوى المصارع والجواد فوق صدره . وجثم الثور فوقهما معا .

والتفت صوب كارمن فلم ار لها أثرا . . لم تسكن مكانها ، لا ولا فى الساحة كلها .

ولكنى لم استطع الانصراف اذ ذاك ، واضطررت الى البقاء حتى نهاية الحفلة

ثم غادرت الساحة لفورى ، ميمما شطر ذلك البيت الذى تعرفه ـ والذى وقع فيه لقاؤنا الثانى ـ فلم أجدها . .

فكنت حتى اقبل المساء .. وانقضى شطر من الليل .. بل واكتهل الليل .. ولم يبد لكارمن فى البيت أثر . .

وعادت كارمن أخيرا . . حول الساعة الثانية صباحا .. ففوجئت بوجودى . . وانتابها شيء من الدهشة . .

ولكنها كانت واجمة آسية ..فلم تبس ببنت شفة .. حتى بادرتها قائلا :

— هلمى بنا نرحل . .

فاجابتنى وهى سادرة فى وجومها :

— حسنا .. هيا بنا .

فاحضرت جوادى من الحظيرة التى كنت قد اودعته فيها . . واردفت كارمن خلفى . . ثم انطلقنا بقية الليل . . والصمت يسودنا .. فلم ينطق أحدنا بحرف واحد . . حتى اذا انجاب ستر الظلام . . وانبثق نور الصباح .. عرجنا على فندق صغير منعزل .. على مقربة من كنيسة صغيرة فأوينا الى حجرة فى ذلك الفندق .

وبادرتها حين استقربنا المقام وصرنا على انفراد :

— اصغى الى يا كارمن .. سأنسى كل شيء .. ولن احدث عن الماضى أو أشير اليه بكلمة اذا عاهدتنى على أمر واحد .. تقسمين ان تفعليه .

ذلك هو ان تصحبينى الى امريكا . . فتبدئى معى حياة جديدة هادئة وادعة .

ولكنها أجابت فى صوت متحشرج :

— لا .. لاأريد ان أرحل الى أمريكا .. انى راضية قانعة بمقامى هنا .

فصحت :

— ماذلك الا لأنك تكونين هنا على مقربة من لوكاس وعلى اتصال وثيق به . . ولكنني أرجو ان تتدى وتفكرى فى روية وتعقل . . انه لوشق من الصدمة التى تلقاها .. والتأمت جراحه فيكون ضعيفا عليلا ولن يستعيد يوما قوته . ومع ذلك.. فلم اتقل نفسي بالتفكير فيه ..وأى شأن لى به ؟ .. لقد سئمت قتل عشاقك .. ولن أقدم بعد ذلك الا على قتلك انت .

فحدجتنى بنظرة طويلة ثابتة ..فاضت خلالها فطرتها البرية الوحشية . . ثم قالت :

— لطالما فكرت فى انك سوف تقتلنى يوما .. لقد قابلت قسا لدى باب بيتى قبيل ان أراك أول مرة .. ولقد لمحت شبثا ونحن نغادر قرطبة هذا المساء .. رأيت فيه نذيرا جديدا يؤكد ظنى . . لمحت أرنبا يجتاز الطريق مارا بين حوافر جوادك .. انه شبح القدر والمصير المنتظر !

فسألتها جادا :

— حدثينى يا كارمن .. صارحينى..احق انك لاتحبيننى ؟

ولم تجب .. بل جلست القرفصاء على حصيرة فوق أرض الحجرة . . واخذت ترسم على الارض باصبعها أشكالا مضطربة ملتوية . . فعدت أقول لها فى نصح يمازجه رجاء :

— هيا نستبدل بحياتنا هذه حياة أخرى يا كارمن .. تعالى نعش معا فى مكان لانفكر فيه بعد اليوم فى فراق او انفصال . . انك تعرفين اننا نملك مائة وعشرين «اونزا» دفناها فى الارض تحت جذع شجرة البلوط التى لايعرف موقعها سوانا . . ثم اننا لانزال ندين ناتان بن . . ولنا بين يديه ثروة ليست بالقليلة . .

فارتسمت على شفتيها ابتسامة وأجابت :

— سأموت أنا أولا — وعلى يديك — ثم لن تلبث أن تلحق بي .. انني جد واثقة من أن هذا سيحدث

فعدت أقول :

— فكرى فيما أعرضه عليك ! .. لقد أوشك صبرى أن ينفد . احزمى أمرك على رأى ، والا حزمت أمري واتخذت القرار الذى ارتئيه .. سأتركك كى لا يعوقك محضرى عن التفكير ، وآمل متى عدت أن أجدك قد قطعت فى الأمر برأى حاسم

وغادرت الحجرة ، ثم فارقت المنزل كله وسرت صوب الكنيسة الصغيرة ، فوجدت راعيها مستغرقا فى الصلاة ، فتريثت حتى فرغ من صلاته .. وجاشت فى نفسى رغبة طاغية ملحة فى أن أصلى ، ولكنى لم أستطع .

وانتهى القس من صلاته ، فاقتربت منه وسألته :

— أبت !.. هل تقبل أن تصلى من أجل انسان محوط بأشد الأخطار ؟

فأجابنى :

— ولم لا ؟.. انى أصلى من أجل كل انسان يعانى محنة أو يقاسى ضيقا

قلت : وهل ترضى أن تؤدى قداسا من أجل روح توشك أن تصعد الى بارئها ، وتمثل

بين يدي خالقها ؟

فرد على سؤالي وهو يرمقني بنظرة حادة متفحصة ، وكأنما قرأ في نظراتي شيئاً أوعز اليه أن يحملني على الكلام ، فأفضى اليه بما في دخيلتي :

— أجل !

وعاد يحدجني بنظرات خلتها تنفذ الى أعماقي ثم قال :

— يلوح لى أنني رأيتك من قبل

فوضعت قرشاً ذهبياً على منضدته ، وسألته متغاضيا عما قال لاروغ من المحاولة التي شاء بها أن يستدرجني الى أن أبثه مافي نفسي :

— ومتى تبدأ القداس ؟

فأجاب :

— في خلال ساعة ، ربما يأتي ابن صاحب الخان القائم هناك فينضم الى في طقوس القداس .. ولكن .. حدثني أيها الشاب .. ألا يقلق ضميرك شيء ؟. ويحسن بك أن تعترف لتخفف عن نفسك .. ولتستمع الى بعض النصائح من قس مثلي ؟..

وخيل الى أنني أوشك أن أصبح معلنا مافي سريرتي .. وأحسست بأنني مشرف على البكاء .. وأردت أن أفر منه فوعدته بان أعود بعد قليل .. ثم انطلقت هاربا من أمامه حتى أتيت على ركن ناء من الحديقة التي تحيط بمبنى الكنيسة . فاستلقيت على العشب الندى الى أن سمعت الناقوس يدق داعيا للقداس .. فنهضت من مكاني وعدت أدنو من الكنيسة . بيد أنني لم أجسر على الدخول . ومكثت خارجها أرقب ما يجرى في داخلها وأنصت الى الصلاة .

وظللت هكذا حتى انتهى القداس فتحولت ميمما شطر الخان .. وتمنيت لو أن كارمن كانت قد انتهزت فرصة غيابي فنشدت الفرار .

وكان ذلك سهلا ميسورا عليها .. بل وكان في وسعها أن تمتطي جوادي .. ولكنني اذ بلغت الخان ، وجدتها فيه لم تبرحه .

وأدركت سر ما كان يخالجها من مشاعر ..

كانت كبرياؤها ونعرتها قد سدتا في وجهها باب النجاة ، اذ عز عليها أن يقول قائل انها خافتني وانني أرهبتها .

وكانت خلال غيابي قد نزعت عن ثوبها حاشيته ، ففصلت عنها ما كان يزينها من قطع الرصاص والقصدير .

فلما ولجت عليها الغرفة ، وجدتها تجلس الى منضدة تحدق في وعاء ملىء بالماء ، كانت لتوها قد اسقطت فيه الرصاص بعد أن صهرته .. وكانت مستغرقة كل الاستغراق في تلك العملية السحرية ، فلم تشعر بعودتي في بادىء الأمر .

ورأيتها تتناول بعض القطع الطويلة من الرصاص تعبث بها بين الفينة والفينة ، وتلويهـا بين أصابعها وتديرها فى كل اتجاه وهى سادرة فى جو من الحزن والاسى ..

وسمعتها تردد بين برهة وأخرى نشيدا صوفيا غامضا من أناشيد النور التى يرددونها فى السحر ، والتى ينادون فيها روح مارى باديلا خليلة دون بدرو — الملك الاسبانى القديم — التى يطلقون عليها لقب « ملكة النور »

لقد سمعت ولاريب بقصة مارى باديلا ؟ ... كيف لا ؟ ... اذن ، دعنى أقصها عليك حتى لا تضيق بقصتى المطردة على وتيرة واحدة ، عسى أن يكون فى تباين الموضوع تسرية لك ..



كانت مارى باديلا ذات مطامح كبيرة ومطامع واسعة .. فما أن وفقت الى أن تندو خليلة الدون بدرو ، حتى سعت الى الاستئثار به لنفسها .. وعملت على أن تقطع مابينه وبين زوجه « الملكة بلانش دى بوربون » — من صلات وأواصر .. ولكنها لم تقنع بالوقيعة والوشاية وإيغار صدر الملك ، بل عمدت الى السحر .. وكانت متمكنة من أصوله ودقائقه .. وقدمت الى الملكة هدية بريئة لاتثير أى شك .. فهى عبارة عن منطقة — حزام — من الذهب الخالص ..

بيد أنها كانت قد أجرت على هذا الحزام كل ماوسعه علمها من فنون السحر وطقوسه .. فكان الحزام البرىء المنظر يتراءى لعينى دون بدرو — ولعينيه هو فقط دون سائر الناس — فى هيئة ثعبان حى أعدته الملكة لتنتهز فرصة سانحة لاغتياله ..

والى هذه القصة يعزون سر الاضطهاد الذى كانت الملكة تلقاه من زوجها

ولكن لنعد الى قصتنا ..



وقفت برهة أتأمل كارمن وهى مستغرقة فى طقوسها السحرية ، ثم هتفت بها : « كارمن .. هلا جئت معى ؟ » .. فنهضت من مكانها ، وسكبت مافى الوعاء من ماء ، ونشرت وشاحها على رأسها تأهبا الرحيل فأمرت أهل الخان فاحضروا جوادى فامتطيته ، وقفزت كارمن خلفى ، ثم انطلقنا مغادرين المكان ..

وقلت اذ غدونا فى الخلاء : « اذن فقد اعتزمت أخيرا يا كارمن أن تتبعينى أينما رحلت .. أليس كذلك ياحبيبتى ؟ »

فأجابت :

— سأتبعك ، إلى الموت .. ولكنى لن أشاطرك الحياة بعد اليوم ..

وكنا قد بلغنا بقعة أنبتت خلالها الاحراش .. كانت منعزلة ، كأنما قطعت عن العالم قطعا ، فجذبت

عنان جوادى أوقفه ، فقفزت كارمن الى الارض فى وثبة واحدة وصاحت « أهنا المكان الذى اخترته لتنفيذ حكم القدر ؟ » ..

وشدت وشاحها فحسرته عن رأسها وألقت به عند قدميها ، ثم وقفت جامدة لاتحير حراكا وقد ثبتت يدها فى خاصرتها ، وراحت ترمقنى فى نظرة ثابتة لاتكاد تتحول ولا يكاد يهتز لعينها هدب . وما لبثت ان عادت تقول :

— لقد اعتزمت قتلى .. وانى لواثقة من ذلك .. اكاد أقرؤه فى عينيك وعلى أساريرك .. انه مصير لامفر منه .. فاقتلنى إذا شئت .. ولكنك لن تقسرنى على الخضوع لك ! ..

وغاظتنى لهجتها ، ولكنى ملكت نفسى ، وكظمت غيظى ، وعدت أقول لها :

— اننى أرجوك يا كارمن .. أتوسل اليك ان تفكرى قليلا .. اصغى لنصحى وارعوى .. سأنسى الماضى كله .. أجل ، سأنسى كل شىء رغم انك لاتجسرين ان تنكرى انك كنت سر دمارى وخراب حياتى الأولى .. من أجلك انت ، لا من أجل كل شىء آخر ، غدوت سارقا ، نهابا ، قاتلا .. كارمن ! .. ياحبيبتى الغالية ! .. دعينى أنقذك فانقذ معك نفسى .

واحسست كأن كل عواطفى تذوب فى لهجتى .. بل خيل الى ان الكلمات كانت تنبعث من أعماق فؤادى .. ولكنها لم تتأثر ، بل قالت :

— تسألنى المستحيل ياجوزيه .. لم اعد أحبك ، بينما لاتزال انت مقيما على حبى ، وهذا ما يبعثك على ان تعتزم قتلى .. وفى وسعى ان اكذب عليك ، وان اخدعك ، ولكننى لا أعبأ ولا اريد ان اتجشم عناء الكذب والخداع . لقد انتهى ما بيننا . ان تقاليد النور تجعل لك الحق — كزوج — فى ان تقتل زوجك ؛ ولكن هذا ايضا يتيح لكارمن أن تظل حرة .. ولن تكون أبدا إلا حرة طليقة .. لقد ولدت نورية ، وسأموت نورية ، فما كان لفرد من ابناء النور ان يخضع لأمر او ان يعيش ذليلا ..

فسألتها وانا امسك قلبي فرقا من الجواب الذى كنت اعرفه واحاول ان اتجاهله عسى ان اسمع من بين شفتيها ما يخالفه :

— او تحبين لوكاس اذن ؟

وجاء الرد على لسانها ، فحطم كل ما بقى من فؤادى .. اذ قالت :

— اجل .. لقد عشقته ، كما عشقتك يوما .. وربما كان حبى له أقل مما كنت اكن لك من حب ، ولكنى احبه على كل حال وأمقت نفسى لاننى أحببتك يوما

والقيت بنفسى على قدميها اتوسل اليها .. وامسكت بيدها اشد عليها وابللها بدموعى وذكرتها بالاوقات الهنيئة التى قضيناها معا .. اقسمت لها ان ابقى بقية العمر أفاقا ، شقيا ، قاطع طريق ، حتى أرضيها .. بذلت كل ما فى وسعى ياسنيور .. عرضت عليها كل شىء ، وتعهدت ان آتى ما لا يخطر لبشر على بال ، فى سبيل ان تعود الى حبها لى .. ولكنها كانت

تجيبني : « اما ان احبك فمستحيل . واما ان اعيش معك ، فهذا مالا اريده او ابغيه » . .

واثار هذا الاصرار غضبي .. فلم اعـد املك مشاعري ، او استطيع كبح جماحي ، فاستللت خنجري واشهرته في وجهها .. وتمنيت ان يخيفها المنظر فتسألني الرحمة وتصبح متوسلة ، ولكنها بقيت كالصخرة لاتتزحزح عن موقفها

وصحت بها :

— انني اسألك المرة الأخيرة . . هل تبقين معي ؟

فضربت الارض بقدمها وهي تصرخ :

— لا ! . . لا ! . . لا ! . .

وانتزعت من اصبعها خاتما كنت قد اهديتها اياه في اول غرامنا ، فطوحت به في دغل قريب . وقالت :

— لقد انتزعتك من قلبي وحياتي كما انتزعت هذا الخاتم الآن ! . .

وجن جنوني ، فطعنتها مرتين بخنجري . . لا ، بل انه كان خنجر جارسيا ، اخذته من فوق جثته ، حين كسرت خنجري في حلقه ! . .

وهوت الى الارض اثر الطعنة الثانية وهي تصرخ . .

اشدما يلوح لي انني ما ازال اتمثل امام عيني منظر حدقتيها السوداوين الواسعتين وقد جمدتا متطلعتين الى قبل ان تغلقا ، وينطبق عليها اجفانها الى الابد . .

وظللت ساعة طويلة وانا جامد مذهول الى جوار الجثة . ثم لم ألبث ان افقت قليلا ، فتذكرت ان كارمن طالما قالت لي انها تتمنى ان تدفن في غابة . فنهضت من مكاني . . وحفرت لها بعد الخنجر الذي قتلتها به ..قبرا ارقدتها فيه .. وانطلقت ابحث في الدغل عن الخاتم الذي طوحت به .. فعثرت به بعد وقت طويل فحملته الى القبر ووضعته الى جوارها مع صليب كنت احمله واعتز به .. ولا اكاد اذكر انني فارقته قبل ذلك اليوم . . ولعلني قـد اخطأت في عملي هـذا . ولكنني لم اندم عليـه . .

واهلت التراب مواريا الجثة في قبرها . . ثم امتطيت جوادي . . واطلقت له العنان . . صوب قرطبة . . حتى إذا اقبلت على اول مركز للحراسة . . اوقفت جوادي . . وترجلت وقـدمت نفسي واعترفت انني قد قتلت كارمن . .

***

لقد كان راعي تلك الكنيسة التي كانت تقوم الى جوار الخان الذي نزلنا به آخر مرة . . رجلا طيبا . . صلى من اجلها . . واقام قداسا على روحها . .

مسكينة ..انها كانت تستحق ان يصلي الرجل من اجلها .. فما كان ذنبها انها عاشت تلك الحياة التي عاشتها . . وانما كان ذنب النور الذين انشأوها تلك النشأة ! . .

تمت

(بقية المنشور على صفحة ٢)

حيثها ورقة زرقاء صغيرة .. كتبت عليها بعض كلمات .. وألقتها تحت قدميه .. ورمقته في ذات الوقت بنظرة ذات معنى .. ثم نهضت .. وما لبثت أن اختفت بين جموع المارة ..

وعجب الشاب .. واستولى عليه الفضول .. وأسف على أنه لم يقم بأية محاولة للتعرف الى هذه الفتاة الرشيقة ..

وكان واثقا من أن الفتاة قد كتبت له شيئا .. فتناول الورقة الزرقاء .. ووجد فيها سطورا باللغة الفرنسية .. ولما كان يجهل هذه اللغة .. فانه دعا كبير الخدم .. ورجاه أن يترجم له مضمون الورقة ..

ولكن كبير الخدم ما كاد يتطلع الى الورقة .. حتى ارتسمت على وجهه علامات الاشمئزاز والنفور .. وأمر الشاب أن يغادر المقهى في الحال .

وذهل الشاب . وقصد الى الفندق الذى ترك فيه حقائبه .. وقص على مدير الفندق ما حدث له في المقهى . وقدم اليه الورقة الزرقاء .. ولكن الرجل ما كاد يقرأ الورقة حتى نظر اليه في اشمئزاز .. وأمره أن يغادر الفندق .. ورفض أن يقدم له أى إيضاح .

وحار الشاب في الأمر .. ووضع الورقة في جيبه .. وقرر أن لا يقدمها لأحد في هذه المدينة العجيبة .

ولما عاد الى أمريكا . قص قصته على مدير المصنع . وكان رجلا حكيما متزنا يحبه . ويعطف عليه . فقال له إن الامر لا يعدو أن يكون دعابة قاسية . وأنه يعرف اللغة الفرنسية وفي استطاعته أن يحل هذا اللغز العجيب .

بيد أن الرجل ما كاد يتناول الورقة الزرقاء حتى قطب حاجبيه . وانقلبت سحنته وقذف بالورقة في وجهه وأمره أن يغرب عن وجهه في الحال وأن يعتبر نفسه مفصولا من وظيفته في المصنع .

وذعر الشاب . واشتدت حيرته . وأدرك أنه لم يفقد طمأنينته وراحة باله فحسب ، بل فقد كذلك وظيفته وأضاع مستقبله ، لا لشيء إلا لبضع كلمات كتبتها فتاة حسناء .. على ورقة زرقاء .

وانه يسير على غير هدى . إذ تذكر مربيته العجوز . وهي امرأة فرنسية تحبه . وتخلص له . فقصد الى بيتها وقص عليها قصته العجيبة . وتوسل اليها أن تترجم له تلك الكلمات الغامضة ووضع مسدسه أمامه . وهو يقول :

— أريد ترجمة سهلة صحيحة . وإلا فانني لا أبرح هذا المكان على قيد الحياة .

فأطرقت المربية برأسها . وبسطت اليه يدها في طلب الورقة .

ووضع الشاب يده في جيبه حيث اعتاد الاحتفاظ بالورقة الزرقاء . ولكنه لم يجدها .

وبحث عنها في كل جيوبه . ولكن بغير جدوى . ولم يقع عليها بصره بعد ذلك أبدا

روايات الجيب

المجلة القصصية الفريدة

رواية العدد القادم

الشقيقات

قصة انسانية رائعة

بقلم الكاتبة الانجليزية فلورنس مونتجومرى

تعريب الأستاذ اسماعيل كامل

العدد ١٧٤ — الأحد ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٤٣

طبعت بمطبعة مجلة روايات الجيب